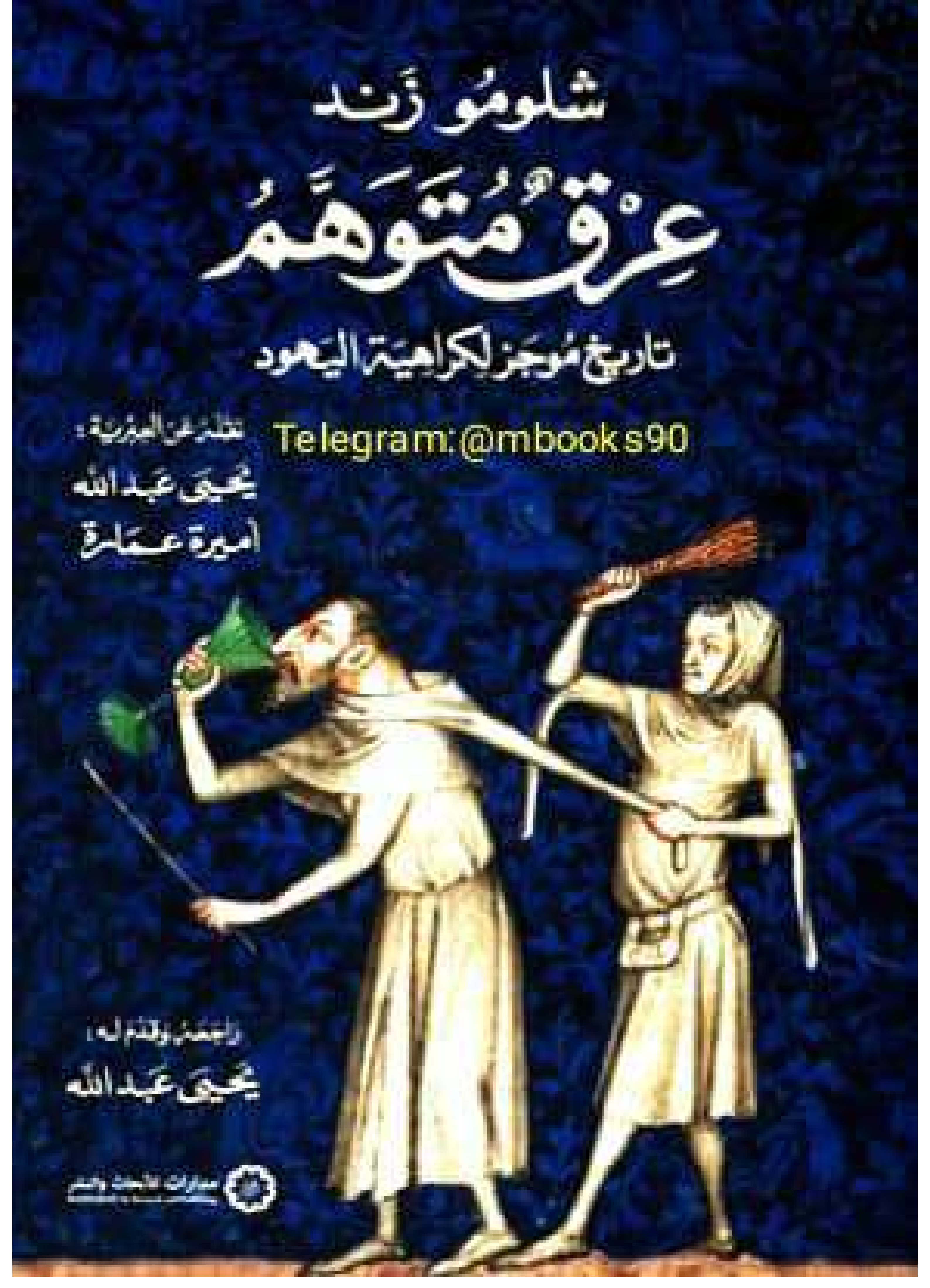

شلومو زند
عِرقٌ مُتوهَّمٌ
تاريخ موجز لكراهية اليهود
Telegram:@mbooks90
نقله عن العبرية:
يحيى عبد الله
أميرة عمارة
راجعه وقدم له:
يحيى عبد الله
مدارات للأبحاث والنشر



هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب

גזע מדומיין







مدارات للأبحاث والنشر
٦٩ ش التكافل - الهرم - الجيزة







شلومو زند

- **ولد عام ١٩٤٦ في لينتس بالنمسا لأبوين من أصل بولندي، هاجر معهما إلى** إسرائيل عام ١٩٤٨.

- أستاذ التاريخ العام بجامعة تل أبيب.

- له مؤلفات عديدة في موضوع هوية الجماعات اليهودية، أثارت ضجة داخل إسرائيل وخارجها، منها: **اختراع الشعب اليهودي** (٢٠٠٨)؛ **اختراع أرض إسرائيل** (٢٠١٢)؛ **كيف لم أعُد يهوديًا؟** (٢٠١٣).

يحيى محمد عبد الله إسماعيل

- أستاذ الأدب العبري الحديث والمعاصر بجامعة المنصورة، مصر.

- الرئيس الأسبق لقسم اللغات الشرقية بكلية الآداب، جامعة المنصورة.

- له من الترجمات: **عسكرة التعليم في إسرائيل**؛ **المتدينون الجدد في إسرائيل**؛ **حرب أكتوبر في الوثائق الإسرائيلية** (ضمن آخرين). فضلًا عن مؤلَّفات وبحوث عديدة.

أميرة عبد الحفيظ عمارة

- مدرس الأدب العبري الحديث بكلية الآداب جامعة المنصورة

- لها من المؤلفات: **ثنائية الخراب والخلاص في الرواية العبرية الحديثة**. ولها من الترجمات: **الحلم الرابع** (رواية).

مقدمة الترجمة

يكتسب كتاب **عرق متوهَّم: تاريخٌ موجز لكراهية اليهود،** أهميته من أمرين: أولًا القيمة العلمية لمؤلف الكتاب نفسه، البروفيسور شلومو زَند (١٩٤٦-)، أستاذ التاريخ العام المتفرغ بجامعة تل أبيب، وبالمبادئ التي يتبنَّاها، وباختلافه إلى حدٍّ ما عن أقرانه من الباحثين والأكاديميين الإسرائيليين، وانفتاحه على المثقفين الفلسطينيين وهمومهم القومية. يحكي المؤلف، في أحد كتبه -أعني: **اختراع الشعب اليهودي** (٢٠٠٨)- أنه التقى الشاعر الفلسطيني محمود درويش في حيفا، عقب حرب ١٩٦٧، وحدَّثه عن «حيرته إزاء البقاء في إسرائيل أو مغادرتها، وأن درويش أهداه، بوحي من هذا اللقاء، قصيدة: «جندي يحلم بالزنابق البيضاء»(1). وقد عبَّر درويش عن حيرة زَند في مقطع من القصيدة، المشار إليها قائلًا:

قلت ممازحًا: ترحل.. والوطن؟

أجاب: دعني..

إنني أحلم بالزنابق البيضاء

أريد قلبًا طيبًا لا حشو بندقية

أريد يومًا مشمسًا، لا لحظة انتصار

مجنونة.. فاشية

أريد طفلًا باسمًا يضحك للنهار،

لا قطعة في الآلة الحربية(2).

يعترف زَند في المقالة الأولى من الكتاب بأنه ليس متجردًا تمامًا، وبأن القراء «سيجدون كثيرًا من نقاط الضعف والعيوب في كتابتي». وقد عبَّر محمود درويش في القصيدة المهداة إلى زَند عن التناقض الذي يعتري ما يؤمن به زَند بوصفه باحثًا، وبما يكتبه بوصفه أكاديميًا، واستمراره في العَيش داخل دولة الاحتلال، والتجنُّد في جيشها، والقتل دفاعًا عنها بقوله (مع ملاحظة علامات التعجب التي وضعها الشاعر في نهاية إجابات زَند على تساؤلات درويش):

سألته: والأرض؟

قال: لا أعرفها

سألته: تحبها؟

أجاب: حبي نزهة قصيرة

أو كأس خمر.. أو مغامرة

- من أجلها تموت؟

- كلا!

وكل ما يربطني بالأرض من أواصر

مقالة نارية.. محاضرة!

(...)

وكيف كان حبها

يلسع كالشموس.. كالحنين؟

أجابني مواجهًا:

- وسيلتي للحب بندقية

وعودة الأعياد من خرائبٍ قديمة

وصمت تمثال قديم

ضائع الزمان والهوية!(3)

والقصيدة بمنزلة شهادة تاريخية من شاعر القومية الفلسطينية على أفكار وخواطر شلومو زَند.

كتب زَند العديد من المقالات السياسية في الصحف اليومية، عبَّر فيها عن آراء نقدية لاذعة في السياسة الإسرائيلية؛ ففي مقال نشره في صحيفة **الجارديان** البريطانية، بمناسبة صدور كتابه **كيف لم أغد يهوديًا؟** (٢٠١٣) يقول: إن العنصرية

في إسرائيل «متجذرة في روح القوانين؛ تُدرَّس في المدارس والجامعات، وتُبث عبر وسائل الإعلام». وهو كما يصف نفسه: ماضيه يهودي، لكن حاضره إسرائيلي: «العيش في مجتمع كهذا أمرٌ لا أكاد أطيقه، لكني أعترف أنه يصعب عليَّ إيجاد وطن في مكان آخر... في كثير من الأحيان أخجل من إسرائيل»(4).

ألَّف زَند العديد من الكتب، نذكر منها:

- **المثقف والحقيقة والقوة: من قضية درايفوس إلى حرب الخليج** (٢٠٠٠)، وهو كتاب موضوعه المثقفون، من حيث كونهم طبقة اجتماعية متمايزة، أو وكلاء للثقافة يقتحمون المجال العام محمَّلين بشحنات قيمية رمزية. وكتاب **السينما بوصفها تاريخًا: تصوُّر القرن العشرين وإخراجه** (٢٠٠٢)، وهو كتاب يهتم بالعلاقة بين السينما والتاريخ السياسي للقرن العشرين.

- **المؤرخ والزمن والخيال: من المدرسة التتبعية إلى القاتل بعد الصهيوني** (٢٠٠٤)، وهو كتاب يتناول الجوانب المختلفة للكتابة التاريخية الحديثة.

- **اختراع الشعب اليهودي** (٢٠٠٨)، وهو كتاب يواجه تراث الكتابة التاريخية التي تمجِّد الشعب اليهودي منذ خروج بني إسرائيل من مصر. ويفكِّك زَند في هذا الكتاب الرواية الصهيونية التي اخترعت مسألة الشعب اليهودي بغرض إنتاج قومية جديدة. ويرى أن اختراع الشعب اليهودي استند إلى التوراة بوصفها كتابًا في التاريخ وإلى أسطورة نفي اليهود، وبذا نشأ تاريخ قومي من عدم. يتبنى زَند في هذا الكتاب مجموعة من الآراء المهمة، منها: أن اليهود لم يُنفَوا قطُّ، وأن اليهود الإشكناز متهوِّدون يَعتزُون إلى مملكة الخَزَر، وأن يهود اليمن متهوِّدون يعتزون إلى قبيلة حِمير، وأن أكثر يهود إسبانيا وشمال إفريقيا متهوِّدون، وأن اليهود بذلك أمة دينية خاصة، وليسوا شعبًا غريبًا مُشرَّدًا كما روَّج بعض الصهاينة. وقد أثارت آراء زَند نقاشًا عامًا واسعًا في إسرائيل وفي العالم.

- **اختراع أرض إسرائيل** (٢٠١٢)، وهو كتاب تقوم فرضيته الأساس على أن البروتستانتيين الإنجيليين واليهود الصهاينة هم مَن اخترعوا مفهوم «أرض إسرائيل»، بوصفه مفهومًا جيوسياسيًا في القرن التاسع عشر، وأن هذا الاختراع هو ما شرعَنَ استعمار فلسطين وأفضى إلى إقامة دولة إسرائيل، وأنه هو ما يهدد

وجودها اليوم. يطرح الكتاب العديد من التساؤلات الثاقبة منها: هل لمصطلح الوطن بمعناه المعاصر وجود في التوراة أو التلمود أصلًا؟ وما مفهوم أرض الميعاد؟ وهل تطلّع أبناء الديانة الموسوية من أنصار التلمود إلى الهجرة إليها حقًا على امتداد ألفي عام؟ ولماذا لا ترغب أكثرية ذريتهم العيش فيه اليوم؟ وماذا عن السكان الأصليين للأرض الذين تحولوا إلى سكان مهمّشين بها، وهل لهم الحقّ أصلًا في مواصلة العيش بها أم أن وجودهم بها مؤقت؟ إلى آخره من الأسئلة الثاقبة، فضلًا عن التشكيك في مفهوم «الحقّ التاريخي».

- **كيف لم أغد يهوديًا؟** (٢٠١٣): ينفي زند في هذا الكتاب فكرة وجود ثقافة يهودية علمانية أو سمات مشتركة بين اليهود العلمانيين حول العالم، وأن الهولوكوست تحول إلى مكون مهم في الهوية اليهودية العلمانية بدلًا من الهوية الدينية، وأن «الشعب المختار» تحول إلى «الضحية الحصرية»؛ وأن العديد من اليهود يتمسكون بأيديولوجية هتلر فيما يتعلق بنظرية العرق.

- **تاريخ في أفول: تأملات في الزمن والحقيقة** (٢٠١٥)

- **عرق متوهم: تاريخ موجز لكراهية اليهود** (٢٠٢٠).

أما الأمر الثاني، الذي يكتسب الكتاب أهميته منه فيتعلّق، بتقضيه، بمنهجية علمية، جذور كراهية الأوروبيين لليهود، سواءً على مستوى المؤسسات الرسمية: السلطة الكنسية، الأنظمة الملكية والإقطاعية وحتى الجمهورية لاحقًا، أم على مستوى المفكرين الأوروبيين وأهل الرأي على مرّ العصور من مختلف المشارب والاتجاهات: يساريين، وليبراليين، ويمينيين، محافظين، واشتراكيين، وشيوعيين، ورأسماليين، أم على المستوى الشعبي. وقد أرجع الكتاب أسباب هذه الكراهية إلى أسباب عقدية، تتعلق بإيمان الأوروبيين النصارى بأن اليهود هم «قتلة يسوع الناصري»، وأسباب تتعلق بطبيعة الشخصية اليهودية ذاتها؛ من حيث استغلالها غير اليهودي وإقراضه بالربا الفاحش، وتعاليها على الأغيار، وانعزالها عنهم من منطلق هذا التعالي الذي يرجع إلى أسباب دينية. يعقد الكتاب مقارنة خاطفة وعابرة بين تعامل أوروبا النصرانية مع اليهود وتعامل الحكم العربي الإسلامي معهم منذ القرن الثامن الميلادي حتى القرن الثالث عشر الميلادي، ويشير إلى ازدهار الطوائف اليهودية في ظله، وإلى اكتسابهم حقوقًا حُرموا منها في أوروبا.

يكتسب الكتاب أهميته من تفنيده، بالحُجة والدليل العلمي، أساطيرَ مؤسِسةً للصهيونية وأكاذيبَ مروِّجةً لها، منها: أكذوبة «نفي» اليهود من فلسطين على يد الرومان في القرن الأول للميلاد، وأكذوبة «نقاء العرق اليهودي»؛ مشيرًا إلى أن أكثر يهود أوروبا لا يَمُتُّون لـ «الساميين» بِصلة. كما يكتسب الكِتاب أهميته من تفريقه بين كراهية اليهود من ناحية، ومعاداة الصهيونية، ومناهضة الممارسات الوحشية لدولة إسرائيل ضد الفلسطينيين وانتهاجها نظامًا للفصل العنصري من ناحية أخرى. وأخيرًا يكتسب الكتاب أهميته من إشارته إلى انحسار الكراهية ضد اليهود في أوروبا -بعد التخلص منهم بطبيعة الحال- وإلى حلول كراهية الإسلام والمسلمين محلَّها، رغم أنه لم يُدِنها ولم يُشِر إلى دور الصهيونية العالمية في إذكاء أُوَارِها.

من هذا المنطلق، فإننا نُهيب بزملائنا من المتخصصين في حقل الدراسات الإسرائيلية متابعة كتابات شلومو زَند وغيره من الباحثين الجادِّين -حتى وإن قاربوا الحقيقة على استحياء- وترجمتها إلى العربية، ونتوجه إلى المؤسسات الثقافية، ومراكز البحوث في وطننا العربي برجاءٍ نلتمس فيه تشجيع المترجمين، والإفادة من معارفهم وإمكاناتهم، ونشر ما يترجمون من أعمال لائقة، آملين أن تفرِّق هذه المؤسسات بين المعرفة والتطبيع؛ فالمعرفة لا تقتضي التطبيع بالضرورة، والمعرفة قوة كما قال فرانسيس بيكون.

منهجنا في الترجمة

يذهب فريدريش شلايرماخر (١٧٦٨- ١٨٣٤)، اللاهوتي والفيلسوف الألماني، إلى أن المترجم بإزاء طريقتين في الترجمة: إما أن يأخذ بيد القارئ إلى عالم كاتب النص واصطلاحه، أي ما يُعرف باسم: «التهجين»، أو «التغريب»، أو أن يدجِّن اصطلاح النص المراد ترجمته ويقربها إلى القارئ فيما يُعرف بـ «التدجين» أو «التقريب». وقد أخذنا بالطريقة الأولى لأسباب تتعلق بخصوصية المصطلحات التي استعملها المؤلف من ناحية، وحرصًا على عدم تسييس الترجمة أو أدلَجَتِها من ناحية ثانية. ثمة مصطلحات اتفقنا فيها مع المؤلف ونُقِرُّه عليها، مثل استعماله كلمتي: نصارى ونصرانية ومشتقاتهما، ولم نشأ أن نترجمهما: مسيحيون، ومسيحية؛ حيث تتفق الرؤية اليهودية مع الرؤية الإسلامية في هذا الشأن؛ كما ورد في قوله تعالى: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا} [البقرة: ١٣٥]. وثمة

مصطلحات لا نتفق معه فيها، أبقيناها كما هي، مثل: «الاحتلال» أو «الغزو» العربي للأندلس ولفلسطين... إلخ.

وختامًا، نأمل أن يكون الكتاب إضافة للمكتبة العربية، وأن يكون عونًا للدارسين، في حقل الدراسات الإنسانية عامة، والإسرائيلية، خاصة.

والله ولي التوفيق.

يحيى عبد الله

ملحوظات حول الكتابة الذاتية

اليهود هم سبب كل مشاكلنا!

لا، ليس صحيحًا، السبب هم راكبو الدرّاجات!

لماذا هم راكبو الدرّاجات؟

لماذا هم اليهود؟

(نُكتة ييديشية(5) من القرن السابق)

أنا مؤرخٌ محترف، وقد كتبت هذا المقال(6) مستعينًا بمعرفة اكتسبتُها واختزنتها حين كنت تلميذًا ومعلّمًا على مر السنين. لكن يتوجب عليّ الآن أن أحذّر قرائي: لم أنظر قطُّ إلى حرفة التاريخ على أنها علم، ودائمًا ما كنت أعلم أن استرجاع التاريخ لا يمكن أن يكون إجراءً موضوعيًا. بطبيعة الحال كان هناك وما يزال مؤرخون جيدون وآخرون أقل جودة، كما أن هناك نجّارين ممتازين وآخرين مُهمِلين، لكن كل كاتب للتاريخ مقيَّد بروح العصر وبطبيعة المكان اللّذَين يحيا فيهما، وإذا كان منصفًا فإنه يتوجب عليه أن يبذل جهدًا وأن يكشف بقدر المستطاع الشحنات الذاتية التي تُرجِّح موقفه من التاريخ وتصوغه.

بخصوص هذه المقالة، وعلى نحو أكثر مما في مؤلفاتي السابقة، سيكون من باب الرياء أن أتظاهر بالحياد والـ «علمية» في كتابتِي؛ إذ إن سيرتي ستبدو متناقضة على الفور مع أي تساذج من هذا النوع.

وُلدتُ بعد الحرب العالمية الثانية في معسكر للنازحين اليهود بالقرب من مدينة لينتس بالنمسا. ثم نُقلت بعد وقت قليل إلى معسكر آخر في باڤاريا، وهناك مكثت عامين قبل أن يهاجر والداي إلى فلسطينا(7) التي صارت إسرائيل في ١٩٤٨. فقدَ والداي والدَيهما -أي أجدادي- في المذبحة النازية الكبيرة وأقارب آخرين، وأنا أعدُّ هذا الحدث مرحلة بشعة في التاريخ الإنساني، لكنه نتاج أيضًا لتطور كراهية ممتدة لليهود اتسمت بها الحضارة النصرانية.

لذا، فإن كل محاولة للتظاهر بالتجرد من شأنها أن تكون نفاقًا. حقًا، بذلت جهدًا

لأفهم كُنهَ معاداة اليهود في المراحل المختلفة، ولأقف على أسبابها، لكن الأمر لا يَعني أنه يَسعُني الغفران لمن يتبنَّونَ هذا الموقف، ولذلك ربما لن أفهمه فهمًا كاملًا. لكن إذا كنت أعلم أيضًا أنه لا يمكن الوصول إلى الحقيقة في «العلوم الإنسانية والاجتماعية»، فإنني لم أفكر قطُّ في وجوب التخلي عن جهد الاستمرار في السعي نحوها.

وحيث إنني أميل إلى إبداء عدم تسامحٍ نحوَ كل أشكال القبح والحماقة الإنسانية التي تُغذِّي رفض أقليات لغوية ودينيةٍ وجندرية، وإقصاءها وتمييزها، فإنني أفترض أن القراء سيجدون كثيرًا من نقاط الضعف والعيوب في كتابتي. عليَّ الاعتراف بأنني لم أستطع دومًا التغلب على نفوري من جَور الأغلبية القوية التي تفرض قوانينها على أقلية صغيرة ومهدَّدة؛ وقد عاش اليهود على امتداد تاريخ العالم الغربي أنواعًا شتى من «التغريب» و«الآخرية»، واضطروا لأن يَعُوا دائمًا وضعهم الخاص.

الحجة الأساسية التي تنطوي عليها هذه المقالة أن عقيدة الإله اليهودي لم تكن أمَّ النصرانية، وإنما النصرانية تحديدًا هي التي صاغت -تاريخيًا- طبيعة الأقلية اليهودية، التي عاشت لمئات السنين بين ظَهرَانَيها، وسلوكها. حين رأى جان بول سارتر في اليهودي العصري نتاجًا لنظرة غير اليهودي إليه، لم يخطر بباله أن «اليهودية الأصيلة» بالفعل، أي الدينية، كانت في جوهرها نتاج النظرة المؤسسة والمعادية من جانب الحضارة النصرانية.

يَنتج عن العيش على امتداد مئاتٍ عديدة من السنوات وسط جيران يؤمنون بأنك قتلتَ ابن إلههم، هُويات منغلقة ومتوجسة بإجماع الآراء. وقد أدت حياة الخوف اليومي العميق الذي تُغذِّيه بيئة معادية إلى التعنُّت والتحصُّن العَقدي، وولَّد العزل القَسري من جانب الدِّين المهيمن لدى المنبوذين رفضًا لاستيعاب مستجدات وإغواءات ثقافية. وشجع أيضًا عقليةً صدَّت كل من حاول التقرب.

مالت العقيدة والممارسات اليهودية، بشكل عام، وبتعميم كبير إلى الجمود؛ اللهم إلَّا الحقبة الرائعة بالطبع، فترة العصر الذهبي لليهود والعرب في إسبانيا (وفِكر الحاخام موسى بن ميمون، الذي هو نتاج مباشر لتلك الحقبة). فقد صاغ الحنين الجارف إلى التفسير الحرفي للنص (الديني)، الذي رافقه تطلعٌ مؤلم نحو الخلاص

مع إدارة الظهر للمحيط التغريبي، العالم الروحاني لليهود بوصفهم طوائف في حالة حصار.

معاداة للسامية أم كراهية لليهود؟

لا يجب، بالطبع، أن نستنتج من ذلك أن أشكال العداء تجاه اليهود، وتجاه الهوية اليهودية ذاتها، كانت متماثلة في كل العصور. فقد كانت شدة النفور من الآخر اليهودي مختلفة أيضًا في أماكن مختلفة (ضمن حدود الحضارة الإسلامية، على سبيل المثال، كانت هناك حالة من التعالي على اليهود أكثر منها كراهية، سواء في التشريع أم في الممارسة اليومية)(8). ومع ذلك، لا يمكن البدء في فهم معاداة اليهود في القرن العشرين، في نظري، أو التغييرات التي طرأت على الهوية اليهودية ذاتها، من دون أن نضع في الاعتبار الفترة الزمنية الطويلة التي سوّغتها وصاغتها اقتصادات تتغيَّر، وسياسات تتبدَّل، وتكنولوجيات تتطور. لكن العمر الزمني لرواسب العداء الذهنية التي تتغذى على معتقدات أطول كثيرًا؛ حتى وإن طرأت عليها تغيرات.

من المؤكد أن القراء سيلحظون حقيقة أنني لا أستعمل في هذا الكتاب المصطلح الدارج «معاداة السامية». وهذه الكلمة استحدثت فقط في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، في ذروة تَبلوُرِ التصنيف البيولوجي على أساس العِرق، وهي لا تدل، في رأيي، على جفوة معرفية حاسمة في تاريخ العداء لليهود؛ وإنما على مرحلة مهمة جديدة بها بوجه خاص. لم يخلق الاكتشاف «العلمي» لأي عرق سامي أو عرق هندو-أوروبي نظرة الاحتقار والتسفيه العميق تجاه اليهود (وتجاه أبناء المستعمرات)؛ كان المسؤول عن ذلك فكر التفوق الذي رسَّخ وصاغ اختراع الهيراركية البيولوجية للأعراق - أو بكلمات أخرى: وجود التصنيف العرقي على أساس أيديولوجي قبل فترة كبيرة من اكتشاف الدم، أو البصمة الوراثية المعاصرة «دي.إن.ايه»، كما سنرى لاحقًا.

ولأنه لا يوجد عِرق ساميٌ، ولا عرق آريٌ بالطبع أيضًا، فإن جذور كلمة «معاداة السامية» تكمن في مغالطة جوهرية شريرة، من جانب ساسة شعبويين، بخاصة، أرادوا إضفاء صلابة «علمية» على كراهية عتيقة. بالطبع توجد لغات سامية، مثلما توجد لغات هندو-أوروبية أو لغات أوسترونيزية(9)، وقد وقف علم اللغة الحديث

على سماتها وعلى مشاكل تصنيفها. لكن بما أن يهود أوروبا لم يتحدثوا العبرية -وإنما اعتادوا تلاوة صلواتهم بها بوجه خاص- فإنهم لم يكونوا قطُّ «ساميين». إن شعب اليديش، الذي نما وتبلور في شرق أوروبا، كتب لغته الهندو-أوروبية بحروف آرامية تنتمي حقًا للغات السامية، لكن اليهود الذين عاشوا تحديدًا في العالم العربي يمكن اعتبارهم «ساميين» من الدرجة الأولى.

قد يثير الأمر ضحك بعض القراء، لكن يجوز وصفي أنا أيضًا «ساميًا» نموذجيًا. لم أولد «ساميًا»؛ حيث إن لغة طفولتي، التي لم أجِد قراءتها وكتابتها، كانت اليديشية. وقد اكتسبت العبرية في المدرسة ومن الشارع فقط، وأنا أعشقها حتى يومنا هذا، وبها فقط أستطيع تدقيق الأمور أحيانًا دون أن أندم على ما أكتب. بهذه اللغة أنا أحلم، وأفكر، وأكتب، وبها أيضا كتبت هذه المقالة؛ أو من الصواب القول: إنها كُتبت بـ (اللغة) الإسرائيلية؛ نظرًا لأن النحو وجزءًا لا بأس به من الكلمات يختلفان فيها تمامًا عن لغة مؤلِّفي كتب التوراة القديمة.

على أي حال، أنا أُفضِّل استعمال مصطلح «كراهية اليهود»، الذي سبق ظهور «معاداة السامية» وهو أكثر منه دقة وإن كان بنسبة قليلة.

استعمل ليؤون بينسكر(10)، وهو من أوائل الصهيونيين، مصطلح «كراهية اليهود» في مقالته الرائدة **الانعتاق!** التي نشرت عام ١٨٨٢؛ نظرًا لأن «معاداة السامية» لم تكن معروفة حينذاك بما فيه الكفاية. يمكن للمصطلح أن يشير -بالطبع- إلى مرض سيكولوجي، وقد قصد بينسكر -الذي كان طبيبًا- ذلك صراحة بالفعل.

لا أظن أن كراهية اليهود، أو رُهَاب الأجانب بشكل عام، مرض حقًا. صحيح أن مصادر العَداء تجاه المختلفين سيكولوجية أيضًا ومتأصلة في السلوك الإنساني، لكن نوباته الشاذة ترتبط دائمًا إما بسياقات أيديولوجية طويلة المدى أو بملابسات اجتماعية-اقتصادية وسياسية. فضلًا عن أن الخوف إذا كان هو ما يقف وراء كل كراهية للآخر، فإنه ليس الدافع الوحيد الذي يحدد كل تمثلاتها البغيضة؛ فمشاعر الدونية والتعالي، والغيرة والجهل، وشهوة التحكم واستغلال نِسَب القُوى، والمعاناة والبحث عن كبش فداء مسؤول عنها... وغير ذلك من المظاهر الذهنية المعلومة والمعروفة هي ما يُغذي رُهاب الغرباء وكراهية اليهود أيضًا.

كما ذكرتُ سابقًا، ليس كل شيء مفهوما بالنسبة لي في هذه الظاهرة الإنسانية، ولا أظن بالتأكيد في أن من الممكن تلخيصَها في المقولة الإنجليزية (The dislike of the unlike)؛ أي هتروفوبيا بمعنى النفور الطبيعي من المختلف. إذا جاز القول إن العنصرية في جوهرها هي التعالي على الفقراء، فإن من الممكن إضافة أن التصنيف العرقي، أي تحويل الآخر أو تحويل نفسك إلى عرق، الذي هو أمر مُتوهَّم دائمًا، مصدره فكري، وأن المثقفين هم دائمًا مَن ينسجونه.

في الصفحات التالية أردت أن أتتبع -ولو من نقطة عالية- بضع محطات عن الكراهية المتقدة وطويلة الأمد تجاه اليهود، وفهم ما تَبقّى من ذلك العداء متعدد الطبقات في عصرنا نحن. ومقابل ذلك وفي الجزء الأخير سأطرح أيضًا القضية الشائكة التي قد لا تروق قراءً عديدين: إلى أي مدى كانت الصهيونية، التي نشأت ردَّ فعل على محنة الكراهية العصرية لليهود، مرآة لها؟ بأي قدر ورثت عبر عملية ديالكتية معقدة ركيزة أيديولوجية ميزت مضطهدي اليهود منذ الأزل؟

وثمة قضية أخيرة: إلى أي مدى كانت إسرائيل وظلت بسبب ذلك دولة إثنو-دينية وحتى إثنو-بيولوجية، وليست دولة ديمقراطية عصرية؛ رسالتها خدمة كل مواطنيها الإسرائيليين، بغض النظر عن الدين، والنوع، والأصل؟

كبح التهوّد

«السواد الأعظم ممن يُطلَق عليهم اليهود؛ لا ينحدرون، بيولوجيًا، من نسل أسباط ساميَّة [...]»

ريمون أرون(11)،

ذكريات، ١٩٨٣

كان قسطنطين الأول إمبراطورًا للإمبراطورية الرومانية الغربية منذ عام ٣١٢م وحتى عام ٣٢٤م، وظل منذ تلك السنة وحتى وفاته في ٣٣٧م حاكمًا للإمبراطورية بأسرها. كان أول إمبراطور يتبنى النصرانية. وفي عصره توقف تمامًا اضطهاد أنصار يسوع، واكتسبت عقيدتهم شرعية، وسرعان ما أصبحت المُفضَّلة في الجهاز الإمبراطوري؛ وبذلك تسارعت بشكل مؤثر العملية البطيئة لتحويل البحر الأبيض المتوسط إلى بحر نصراني، وتأسيسًا على ذلك: انتصرت النصرانية بشكل نهائي على اليهودية التي نافستها لنحو ٢٥٠ سنة على الاستئثار بقلوب التائقين إلى الإله الواحد.

يجب أن نضيف أن قسطنطين لم يضطهد يهودًا بسبب هذا الأمر (مثلما لم يمس عبدة الأوثان). صحيح أنه استمر في حظر إقامتهم في أورشليم، لكي يحولها إلى مدينة نصرانية، لكنه اعترف بوضع شاغلي الوظائف من اليهود، واحترم شعائرهم الدينية كما هو المعتاد في روما. مع ذلك، كان قسطنطين صارمًا في تعامله إزاء تغيير الديانة؛ فقد سنَّ قانونًا يحظر الزواج بين اليهود والنصارى، وقانونًا يحظر على اليهود أيضًا ختان عبيدهم. منذ ذلك الوقت عوقب بشدة كل يهودي يمنع بالقوة فردًا من أبناء ديانته من محاولة التنصر، وقد تصل العقوبة حتى إلى الإعدام. بالطبع لم يكن من المفترض أن يُطبَّق القانون على نصراني يمنع نصرانيًا آخر من التهود.

وطبقًا لذلك لم يكن هدف الهجوم النصراني الأول الممنهج على الديانة التوحيدية الشقيقة هو إبادتها؛ بل كان الهدف هو تصفية ديناميكية التهوُّد التي تفشَّت في أنحاء الإمبراطورية الرومانية.

في ختام **سِفر إستير**(12) -وهو أحد أسفار التوراة التي دُوِّنت متأخرًا جدًا، على الأرجح في مطلع القرن الثاني قبل الميلاد(13)؛ أي في العصر الهلينيستي(14)- ترد الجملة المفاجئة: «وكثيرون من شعوب الأرض **تهوَّدوا** لأن رعب اليهود وقع عليهم» [الإصحاح الثامن، الفقرة ١٧]. لم يرد الفعل «**تهوَّد**» قبل ذلك في أسفار التوراة. ليس من العسير الافتراض بأن **سِفر روت**، الذي يحاول إقناعنا بأن الملك داود كان من نسل فتاة متهودة من مؤاب(15)، هو سِفر كُتب كذلك في الفترة نفسها. يدل هذان السفران بنسبة كبيرة على المعارضة الشديدة لمرحلة الانعزال -التي اتسمت بها بداية التوحيد اليهوي(16) الناشئ والضعيف- مثلما يدلان أيضًا على حالة ذهنية وفكرية جديدة انبثقت وظهرت في تلك الفترة في الحوض الشرقي من البحر المتوسط.

لكن ينبغي الشك في مثل هذه المقولة التاريخية التعميمية - هذه الحالة الذهنية الجديدة كانت ما تزال، بشكل أساسي، موضع اهتمام نُخب سياسية وثقافية، أو طبقات اجتماعية حضرية. يتطرق التوثيق الواهي الذي بين يدينا إلى هذه النُخب، سيما وأنه ينطوي على تعميم مُبالَغ فيه. كانت المجتمعات العتيقة آنذاك تتكون من المزارعين الأُميِّين، وبعضهم كان من العبيد، ليست لدينا معرفة كبيرة بشأنهم وأن «التغيرات» التي يحكي المؤرخ (التوراتي) عنها تتماس مع حياتهم بشكل متواضع للغاية.

اختلطت الثقافة الهيلينستية، التي انتشرت وطمست حدودًا وهُوياتٍ تقليديةً، خلال فترة مملكة الحشمونيين(17) في يهودا بعقيدة الإله الواحد، ومن ثم خلقت ديناميكية من التهويد التوحيدي لم تكن معروفة من قبل في التاريخ. أجل، من الصعب أن نطبق المصطلح «يهودية» على عقيدة لم يكن بها آنذاك التلمود والمشنا(18)، لكن مع التمرد الناجح للمكابِيين ضد الحكم متعدد الآلهة للسلوقيين(19) أُقيمت في واقع الأمر وعلى ما يبدو للمرة الأولى في تاريخ العالم الغربي -إذا تشككنا في القيمة التاريخية للأساطير التوراتية- **مملكةٌ توحيدية** من الطراز الأول.

كانت إحدى الخطوات المهمة للمملكة الناشئة -ربما كعادة كل الممالك في التاريخ- توسيعَ نطاق حكمها. لكن رافقَ خطوةَ الضم الروتيني هذه المرة وجهٌ أصيل لم يُعهَد من قبل، لا في التراث الوثني ولا في الفروض الدينية التوراتية؛ ففي عام ١٢٥ قبل الميلاد احتل هوركانوس الأول الحشموناني، حاكم يهودا، أراضيَ الأدوميين(20) الشاسعة التي تقع جنوب مملكته، وهوَّد سكانها بالإكراه. بعد ذلك بواحد وعشرين عامًا أخضع ابنُه أريسطوبولوس اليطوريين(21) لحكمه -وهم على الأرجح قبائل عربية استوطنت مناطقَ الجليل- وأكمل بذلك مشروعَ التهويد الجارف الذي بدأه أبوه.

وإذا كان شمعيا(22) وأفطليون(23)، الزعيمان الروحيان لليهودية الآخذة في التبلور في نهاية عصر الحشمونائيين، متهودَينِ من الطراز الأول في أعقاب هذا الانصهار الشامل، وإذا كان هوردوس الكبير، ملك يهودا وباني الهيكل الفخم في المستقبل، بعد فترة قصيرة من ذلك، وليس من قبيل الصدفة، ابنًا لأب أدومي وأم عربية، وإذا كان شمعون بر جيورا(24)، زعيم تمرد المتعصبين(25) [اليهود] عام ٦٦ للميلاد في أورشليم، ينحدر هو أيضًا من أسرة متهودة - فلن يكون من العسير الافتراض بأنه إذا كان يسوع شخصية تاريخية حقًا، فليس من المستبعَد أنه كان من نسل اليطوريين المتهوِّدين سكانِ الناصرة بالجليل.

من المفهوم أن الرواية النصرانية كانت سترفض هذه الفرضية بانزعاج. ومثلما أن يهودًا ومتهودين عديدين في المستقبل أصروا، من منطلق التباهي بالنسب الأصيل المتخيَّل، على كونهم من ذرية أفراهام، فإن يوسف أيضًا، زوج مريم أم يسوع، كان ينبغي أن يكون هو أيضا من شجرة أنساب ترتبط بأفراهام وبذرية مباشِرة للملك داود [**متّى** ١، ١-١٧]. ولكن للأسف البالغ لم يُكتب أي سِفر مماثلٍ لـ **سِفر روت** عن «الأصل العربي» لأبي يسوع الناصري.

منذ تلك الفترة فصاعدًا أصبحت اليهودية عقيدة إلهية ديناميكية بدأت تنتشر بسرعة في محيط البحر المتوسط. لم يكن رعايا مملكة يهودا، خلافًا للفينيقيين واليونانيين، من مرتادي البحر، فهم لم «ينتشروا» قطُّ، ولم يقيموا ولو مستعمرة واحدة، ولذا فإن لغتهم أيضًا - العبرية أو الآرامية - لم يتحدث بها المتهودون الذين ازدادت أعدادهم. لكن التوحيد كان أشبه بـ «الصرعة السائدة» حتى لقد أثار

فضولَ مثقفين في أماكن بعيدة، وقد نجح الدعاة الذين ارتحلوا من أرض يهودا ووصلوا إليهم في مهمتهم. وهكذا بدأ الكثير ممن ينتمون إلى الطبقات الحضرية في الإسكندرية، ودمشق، وكيرينيا، وإنطاكيا، وقبرص - ولاحقا في مدينة روما نفسها - في التهود بحماس عقدي، وأصبحوا شِبه يهود ورعين، أو يهوذا بكل ما في الكلمة من معنى.

كتب فيلون، الفيلسوف اللامع الذي عاش في الإسكندرية في السنوات الأولى للميلاد، وتمسك بشريعة موسى رغم أنه لم يعرف العبرية أو الآرامية، بلغته اليونانية بفخر مُعلَنٍ: «قوانينا تنال رضا الجميع بقدر كبير، البسطاء والحكام على حدٍ سواء [...] كل واحد، في نظري، سيترك عاداته، سيلقي بعادات آبائه وراء ظهره، وسيتحول إلى تبجيل هذه القوانين فقط (...)»، لقد عرف فيلون أيضًا أن جزءًا مهمًا فقط من «شعب اليهود الكبير والهائل» هو الذي يعيش في فلسطينا؛ وأنه المُسمَّى يهوذا. وأشار فلافيوس يوسيفوس، المؤرخ اليهودي المثير الذي عاش بعده بجيل واحد، من مكان إقامته في روما إلى أنه: «لا توجد مدينة من مدن اليونانيين أو شعب من الشعوب الأجنبية إلا وانتشرت بينهم عادة اليوم السابع (...) ومثلما أن الرب يملأ كل العالم، فإن التوراة انتشرت كذلك لدى نسل الإنسان بأسره». واضطر مؤلفو العهد الجديد من أبناء ذلك العصر هم أيضًا إلى الاعتراف بأنه قد «سكن أورشليم يهودٌ يَخشَونَ الله أكثر من كل شعب على وجه الأرض» [**سِفر أعمال الرسل، ٢: ٥**].

لذا كان بوسع المؤرخ الروماني ديو كاسيوس أن يَخلُص في بداية القرن الثالث الميلادي إلى أنه لا يدري حقًا «من أين اكتسبوا هذا الاسم (اليهود)، لكنه يشير إلى كل الناس الذين يعيشون في ظل هذه القوانين حتى وإن كان أصلهم من أعراق أجنبية». وقد فصَّل أوريجينس، أحد المفسرين الأَصلاء للتوراة –وقد كان يعيش في تلك الفترة تقريبًا- الأمر أكثر قليلًا بقوله: «الاسم يهودي ليس اسمَ عِرقٍ وإنما اسمُ اختيارٍ (أسلوبُ حياة)؛ فإذا قَبِل إنسانٌ ما، أجنبي ليس من أمة اليهود، منهاجَ اليهود وتهوَّد، فإن هذا الإنسان يسمى يهوديًا بشكل واضح».

لكي نفهم هذه الظاهرة التاريخية يجب أن نعود إلى الوراء قليلًا. فمن الحقُ أن السُلطات الوثنية في الإمبراطورية الرومانية الناشئة والمتعاظمة قبل الميلاد، قد

تقبّلت العقيدة اليهودية منذ البداية بوصفها دينًا آخر يُشرع الانتساب إليه، لكن الدعوةَ التي لم تَفتُر إلى التهوُّد -لاحقًا- والتأبّيَ الدائم من جانب المتهودين الكُثر على الاعتراف بالآلهة الأخرى أقلق المثقفين اللّاتينيين في مرحلة مبكرة للغاية. وقد أشار الشاعر المعروف هوراطيوس، ابن القرن الأول قبل الميلاد، بعدم رضًا إلى أن اليهود يفرضون عقيدتهم على جيرانهم. وفي مطالع القرن الثاني الميلادي وصف الكاتب الساخر يوفيناليس بامتعاض حادٍّ عملياتِ التهويد التي انتشرت بين النُّخَب الرومانية. ولم يختلف تفكير سينيكا وطاكيطوس - وهما ممن تحدَّث عن عمليات الدعوة إلى الديانة اليهودية الجديدة- فأعربا عن تخوفهما من نجاحها الكبير.

وهذا هو السبب في أن تيودور مومسين، المؤرخ الأبرز لروما القديمة، قد جزم في حينه بأن «اليهودية في العصور القديمة لم تكن منغلقة على نفسها على الإطلاق؛ وإنما العكس هو الصحيح، لقد كانت مُشبَعة بتعصب في مسألة التهويد ليس بأقل من النصرانية والإسلام من بعدها».

يَشهد كذلك على الشعبية الكبيرة لعقيدة التوحيد في تلك الفترة حقيقة أنه في القرن الأول للميلاد، كانت حَديب، التي تقع الآن في منطقة كردستان الحالية، المملكةَ الأولى خارج (مملكة) يهودا التي تهودت وظلت يهودية إلى أنِ احتلتها روما عام ١١٦م. في فترة التمرد الكبير في يهودا وفي الجليل في ٦٦م أرسلت هليني ملكة حَديب المتهودة مساعداتٍ عسكريةً إلى المتعصبين (اليهود الذين تمردوا ضد الرومان). غير أن مساعداتها لم تُجدِ؛ فمن المعروف أن تمردهم الجارف ضد الوثنية أفضى إلى كارثة دائمة؛ فقد دُمِّر الهيكل الفخم، الذي بناه الملك هوردوس للإله الواحد في قلب أورشليم وأنفق عليه أموالًا طائلة، تدميرًا تامًا.

لقد أخفق كذلك التمردان التوحيديان الآخران اللذان استهدفا عبدة الأوثان: ذلك الذي وقع في الإسكندرية، وفي شمال أفريقيا وقبرص عام ١١٥م وذلك الذي اندلع مرة أخرى في يهودا والجليل عام ١٣٢م. ولا ريب في أن قَمعَهما بلا رحمة من قِبل جيوش الرومان - وقد كانت جيوشًا وحشية في حد ذاتها - مثَّلَ بدايةَ كَبحِ انتشار اليهودية في محيط البحر المتوسط.

من الصعب أن نُقدِّر العدد الإجمالي للمؤمنين اليهود في القرنين الأول والثاني

للميلاد، لكن الاتجاه العام للبحث الحديث يميل إلى التقدير بأنه كان أكبر مما هو متصوَّر من عددهم في مملكة يهودا الصغيرة.

في غضون فترة زمنية قصيرة نسبيًا أخذ حضورهم يتقلص كثيرًا، والسبب في ذلك بسيط؛ فقد بدأت تحل بالتدريج منظومة أجدى وأكثر سلاسة لمشروع التشبث بإله واحد، بدلاً من أشكال التمرد التوحيدي والفاشل بواسطة السيف. وُلد دِين «محبة» أصيلٌ ومفاجئ في أحضان العقيدة اليهودية وإلى جانبها. لكن في الوقت الذي أبدى فيه هذا الدين الرحيم حبًا كبيرًا لأنصاره الجدد، فإنه أبدى نحو أخته الشقيقة عداءً آخِذًا في التزايد.

بداية الهجوم النصراني

في البداية وَجد الناس صعوبة في التفريق بين الشعورين، واختلط الأمر في بعض الأحيان لدى الرومان نحوَهما. احترمت السلطات الحاكمة بشكل عامٍّ أكثرَ اليهودية المعروفة والمتبلورة ومالوا للشك في النصرانية، التي بدت في نظرهم طائفة غريبة منفلتة وذات عقيدة مشعوذة حتى. لكن الرومانيين لم يتعمقوا في الموضوع وتركوا الخلافات للمتشبثين بعقيدة الإله الواحد. لم يكن معظم المؤمنين أنفسهم حتى على علم بعدُ بالتمزق الذي أخذ في الظهور بينهم، ورحبت جموع المتقين الذين ترددوا على الكُنُس بالفروض الدينية المخفَّفة التي عرضها دُعاةٌ مفيدون وأصيلون. يمكننا الافتراض بالتأكيد بأنه لم تكن هناك بعدُ ديانتان مختلفتان لفترة زمنية كبيرة، وإنما دِينٌ واحد ذو مقصدين.

استخفَّ أنصار الحساسية (الديانة) الجديدة -وعلى رأسهم بولس الذي لم يكن من قَبيل المصادفة أنه كان واعظًا يهوديًا في أول أمره- بالعناد غير المرن نحو المتمسّكين بالفروض الدينية من المحافِظين، بل وأخذوا في إهانتهم. ثمة إشارة في العهد الجديد للاحتقار الذي أكنّه التبشيريون المحنّكون نحو (أقرانهم) السابقين «الأقل نجاحًا» ممن ظلوا مُصرِّين على إجراءِ الختان وأداء فروض أخرى معقدة: **«**ويل لكم أيها الكَتَبة والفَريسِيُون المراؤون؛ لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلًا واحدًا، ومتى حصل تصنعونه ابنًا لجهنم أكثر منكم مُضاعَفًا**»**(26) **[إنجيل متّى، ٢٣، ١٥]**.

وسرعان ما تُرجم الاستخفاف المتبادل بين الفرقتين المتنافستين إلى عداوة عميقة. اتَّسمت كل ديانة توحيدية منذ بدايتها في أورشليم، خلافًا للديانات التي تعدّد الآلهة، بطابع شمولي سيتغيّر قليلًا مع مرور الأجيال: فالمؤمن بإله واحد دائمًا ما يمتلك الحقيقة، وكل من يعترض عليه يُلفظ تمامًا. بالإضافة إلى ذلك، ثمة حاجة في الأغلب، من أجل بناء هوية جمعية - إذا استثنينا التضامن الداخلي - إلى اختلاق عدوّ خارجي؛ أي إلى «آخر» يجب رفض سماته الخطرة.

لذا، في بشارة يوحنا يتهم يسوع المؤمنين القدامى الذين يرفضون اتباعه بـ: «أنتم من أب هو إبليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا» [**إنجيل يوحنا**، ٨، ٤٤]؛ أبناء إبليس هؤلاء، الذين لا يريدون الاعتراف بحقيقة المسيح، مسؤولون، في نهاية الأمر، عن إعدامه.

«ولما كان الصباح تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع حتى يقتلوه (...) قال لهم بيلاطس: «ماذا أفعل بيسوع الذي يُدعى المسيح؟» قال له الجميع: «ليصلب!» فقال الوالي: «وأيّ شر عمِلَ؟» فكانوا يزدادون صراخا قائلين: «ليصلب!» فلما رأى بيلاطس أنه لا يُجدي نفعًا بل بالأحرى يُحدث شغبًا، أخذ ماءً وغسل يديه قدام الجميع قائلا: «إني بريء من دم هذا البار(27). أبصِرُوا أنتم!» فأجاب جميع الشعب: «دمُهُ علينا وعلى أولادنا» [**إنجيل متى**، ٢٧، ١، ٢٢-٢٥].

بما أنه لم تكن تكفي إشارة واحدة لتكريس بداية الذاكرة النصرانية في مواجهة اليهودية، فإن قصة القتل المتعمد القاسي لابن الإله تُظهر في صيغ مختلفة في أناجيل أخرى أيضًا [**إنجيل مرقص**، ١٥، ١-١٥، و**إنجيل لوقا**، ٢٣، ٤-٥، و**إنجيل يوحنا**، ١٨، ٢٨-٤٠] «كل الشعب»، أي كل اليهود، أصبحوا قتلة ابن الإله، وسيتعين على ذريتهم الملعونة دفع ثمن ذلك.

وهكذا تحددت نقطة الانطلاق في علاقة النصرانية بالعقيدة اليهودية في أقدس كتبها. والبقية ستأتي.

«شعب عِرق» مُشتت أم جماعات دينية؟

«المتهود أحب إلى الرب جل جلاله من أولئك الذين وقفوا على جبل سيناء. لماذا؟ لأنهم لولا أنهم رأوْا الأصوات والمشاعل والبرق وارتجاج الجبال وصوت الناقور لما آمنوا بالإله. أما المتهود فلم ير واحدًا من كل هذه الأشياء وأسلم نفسه للرب تبارك وتعالى وآمن به، فهل هناك من هو أحب منه؟»

الحاخام شمعون بن لاكيش،

تفسير تنحوما، اذهب، ٦.

مشهورة جدًا مقولةُ بطرس المُتملِّقة لأنصار يسوع المتزايدين: «وأما أنتم فجنس مختار، وكهنوت ملكي، أمة مقدسة، شعب اقتناء... الذين قَبلًا لم تكونوا شعبًا وأما الآن فأنتم شعب الله (...)» **[رسالة بطرس الأولى، ٢، ٩-١٠]**.

وُلد «شعب» الله النصراني إذًا في العهد الجديد. ومنذ القرن الثاني للميلاد تساءل جاستن مارتر(28) عن مغزى كلام بطرس، مع قفزة مهمة أخرى في بلورة سياسة الهويات النصرانية: «ألسنا نحن، الذين قُدِدنا من حِضن المسيح، العِرقَ الحقيقي لبني إسرائيل؟».

الصياغة مهمة هنا. لم يُعرف مصطلح الـ"عرق" بالطبع في العهد الجديد -كما [غُرِف] لدى جاستن لاحقًا- ولم يُعرف نظيراه: «شعب» أو «قومية» بعد مثلما غُرفا لاحقًا في القرن التاسع عشر.. ليس بهذه الصياغة في حقيقة الأمر بعدٌ بيولوجي شامل، ولا قومي بالطبع، بل إن بها قدرًا كبيرًا من المجاز المائع، الذي هو أحد سمات القرون الأولى للميلاد. لكنها مع ذلك تشير -ولو بشكل غير مباشر أيضًا- إلى أصل، وهدفها خلق صورة هيراركية لكتل بشرية مستقلة بشكل جوهري، تستهدف إحداها بشكل واضح استبدال مكانتها مع الأخرى. هكذا انطلقت «نظرية التبادلية» بين «العرقين» المتوهَمَين. وكانت الخطوة الأولى بها -التي ما تزال هيولية- هي تصنيف الآخر اليهودي عرقيًا.

كان جاستن على ما يبدو أول مؤلف نصراني شرع في ربط **طرد اليهود من أورشليم، بعد تمرد بركوخفا(29)، بعقاب إلهي جماعي حلَّ بهم. بدأ أمر الحظر**

الذي أصدره القيصر أدريانوس بعدم دخول مختونين للمدينة في عام ١٣٥م يختلط هنا للمرة الأولى فيما كُتب من كتابات مع فكرة استئصال متوهَمة لليهود من كل الأرض المقدسة. وُلدت أسطورة نفي اليهود إذًا، بوصفها أسطورة أصل وهوية، في أحضان النصرانية المتبلورة، ثم أخذت في مراكمة قيمة رمزية آخذة في التعاظم.

الأمر المثير من ناحية طرق حضور أساطير في الوعي التاريخي هو حقيقة أنه على الرغم من أنه ليس بين أيدينا حتى اليوم - أي بداية القرن الحادي والعشرين- أي دليل، أو إثبات على استئصال الرومان لسكانٍ يهودا استئصالًا مؤثّرًا، أو على هجرتهم طوعًا أو قسرًا من أرضهم، كما لا يوجد كتاب بحثي واحدٌ في هذا الموضوع! – على الرغم من هذا كله فإن أسطورة الـ «نفي» عاشت حياة ممتدة؛ وذلك أمرٌ ليس من قبيل الصدفة.

خدمت أسطورة «الشعب المشتت» في البداية «نظرية التبادل»، التي استمرت في التعزز والانتقال بين بعض المثقفين النصارى. أوضح طرطوليانوس القرطاجي(30) في بداية القرن الثالث للميلاد أنه صحيح أن عيساو ويعقوب التوراتيَين كانا من ناحية «الجسد» من نسل أفراهام، إلا أن الأكبر كان مكروهًا، في حين فضَّل الله الأصغر واعتبر النسل الروحي الحقيقي للأب الأقدم. في نهاية القرن الرابع وفي بداية القرن الخامس، ومع بداية الانتصار المؤسساتي للنصرانية، اتخذت الأسطورة صيغة نهائية. بدءًا من يوحنان خريسوستوموس، الذي نشط في إنطاكيا وأصبح أسقفًا للقسطنطينية، وحتى أوغسطين(31)، الفيلسوف الحاذق الذي عاش في هيبو- عنابة - بشمال إفريقيا، كرس الفكر النصراني جهده للتفريق بين عقيدتي الإله المتنافستينِ وللفصل التام بينهما. كانت إحدى الوسائل لفعل ذلك -كما ذكرنا سابقًا- إقناع المؤمنين بأن هناك «شعبين»في الأصل.

في العظات الثمانية الشهيرة له ضد اليهود (Adversus Judaeos) صبّ خريسوستوموس جام غضبه على المتهودين والدهماء من المتخبطين الذين لا يفرقون كما ينبغي بين ممارسات الشعائر المختلفة للهُويَّتين (للديانتين). بعد ذلك ببضع سنوات سيعطي أوغسطين في مؤلفه **مدينة الرب** بُعدًا لاهوتيًا حاسمًا للفصل النهائي بين العقيدتين. من الواضح تمامًا أن اليهود، في مؤلف المثقف النصراني الحاذق، ليسوا مجرد مؤمنين شرعيين يعيشون في حوض البحر المتوسط، بمعنى

متهودين تبنَّوا اليهودية وأبوا الاعتراف بيسوع ابنًا للإله. صحيح أنه سُمِحَ لليهود بالتنصر، والتاريخ حافل بالعديد من المتحولين عن دينهم؛ لكن هل يستطيع «أبناء إبليس» أن يصبحوا حقًا نصارى كاملي الأهلية؟

كان القول بجواز تفضيل عقيدة إلهية أخرى على النصرانية فكرة لا تُطاق من قبل آباء الكنيسة. سيما وأن معجزة اللقاء بين الروح القدس ومريم البتول كي يولد ابن الله، بما تنطوي عليه من قدر من التعددية، قد أسهمت في إيجاد حساسية متطرفة نحو كل تشكيك فيها. مثَّل عدم قبولْ الثالوث المقدس في حد ذاته تشكيكًا خطيرًا في البناء الفوقي الأيديولوجي برمته للنصرانية المتبلورة. لذا كان يجب على اليهود أن يتحولوا إلى شعبٍ - عرقٍ ملعون هُزم على يد الرومان، وطُرد من أرضه وتشتت في أنحاء العالم لكي يكون شاهدًا على أخطائه وآثامه.

تشكلت الخطوط العامة لشخصية اليهودي المشتت والفاسد المسؤول عن صَلب يسوع، وعوقب بسبب ذلك إلى الأبد - مثلما أن قابيل اضطر للمغادرة والترحال بعد قتله هابيل(32) - من الآن فصاعدًا في قلب المتوهم النصراني. وقد وقف المؤرخ الفرنسي جول إيزاك بالتفصيل على أشكال توليفة الاحتقار والنفور من قِبَلِ آباء الكنيسة: احتقار ونفور من اليهود، امتصهما التراث الكنسي على امتداد السنين.

تشكُّل عقيدة

يمكن القول: إن هذا التراث بالنسبة لليهود سيتحول إلى عقيدة (Doxa) للعالم الغربي، عقيدة ستصان إلى أن تصل إلى الستينيات من القرن العشرين. لقد امتزج التحزب لهذه العقيدة بهيئة العلم الخالص، ولم يعد في مقدور أي شيء أن يغيرها. لا يمكن التفكير، كما هو معروف، في العقيدة، وإنما ينبثق عنها التفكير قُدُمًا؛ إنها تشكل ما يشبه الكود الدلالي الذي تنتقل منه المعرفة إلى العالم. كما أننا ننظر إليها بوصفها اليقين التام، من حيث كونها وجهًا رئيسًا في الهوية الذاتية الجمعية.

حين تبدأ النصرانية أيضًا في التراجع عن هيمنتها المطلقة في القرن الثامن عشر، ستظل العقيدة إزاء اليهود على حالها ليس في الوعي الشعبي للجماهير وحسب؛ وإنما في أوساط مثقفين متنورين أيضًا كما سنرى لاحقًا. ستعزو القومية التي ستأتي بأَخَرَة بشكل «طبيعي» وصمةَ معاداة اليهود لنفسها، وستوظفها جيدًا.

من حسن الحظ الكبير لليهود في المستقبل، أن العقيدة التي بناها أوغسطين تقول: إن وجودهم كشهود ضروري للنصرانية؛ ولذا لا يمكن بأي حال من الأحوال إبادتهم. يجب إذلالهم والابتعاد عنهم بمسافة؛ لكن وجودهم المهين واللعين هو ذاته الدليل الأزلي على صدق وتفوق دين يسوع. وسيكمل جريجوريوس الأول، مؤسس مؤسسة البابوية في نهاية القرن السادس الميلادي، هذا التصور من خلال طرح أكثر تفصيلًا: يجب إبقاء اليهود الأذلّاء على قيد الحياة؛ نظرًا لأنهم سيتنصّرون في آخر الأيام، وسيكون هذا شرطًا لظهور المسيح من جديد في يوم الدين.

أصبحت أسطورة نفي الشعب اليهودي المتوهم، التي أخذت في الترسخ لدى لاهوتيّين نصارى آخرين، إرثًا للعديد أيضًا من اليهود بغير خيار منهم. كان استمرار وجودهم المادي في قلب العالم النصراني الآخِذ في التعاظم حول البحر المتوسط، وفي الأرض المقدسة نفسها، مشروطًا باستعدادهم قبول «نفيهم» الوهمي أم إذلالهم الفعلي. لكن يجب معرفة أن «المنفى» لم يكن في خيالهم نقيض الوطن وظل كذلك؛ بل كان وضعًا وجوديًا يتعارض مع الخلاص(33) الذي لم يَحُلّ بعدُ بالعالم. رأى المؤمنون أيضًا الذين أقاموا في يهودا التي أصبحت فلسطينا أن حياتهم هي حياة منفى؛ وعلى هذا يشهد المشنا والتلمود الأورشليمي.

لقد دفعهم انغلاقهم القسري إلى التشبث يائسين بالقول الذي وجدوا فيه مواساة: إنهم ظلوا رغم القيود التي فُرضت عليهم «الشعبَ المختارَ» لا النصارى؛ شعبًا من «نسل أفراهام» الحقيقي، الذي بدأ من الآن يُهمل، للوهلة الأولى، رغبته في تهويد العالم.

هكذا أسهمت النصرانية في البلورة الأولى للتيار المركزي في العقيدة اليهودية لمئات عديدة من السنين. سيصبح تغريب الآخر اليهودي، ووصفه بصفات معيبة وتنميطه مُكوّنًا مُهمًا في المستقبل في تطور عموم الحضارة الأوروبية.

تهوُّد ممالك

لكن إياك أن تخطئ؛ إذ لم تَنزِع القيودُ التي فُرِضَت على اليهود حول البحر المتوسط وبعد ذلك في أوروبا الرغبةَ في التهويد تمامًا لدى أولئك الذين لم

يستسلموا للثالوث المقدس؛ صحيح أن انغلاقهم على أنفسهم أصبح منذ ذلك الحين سمة من سمات سلوكهم في الأقاليم النصرانية؛ لكن التعطش إلى نشر عقيدتهم انتقل وتسرب إلى أقاليم أخرى بدت أقل خطرًا وتهديدًا لوجودهم نفسه.

لقد سبق وأشرت في الفصل السابق إلى حَديب بوصفها المملكة اليهودية الأولى خارج أرض يهودا. وفي الربع الأخير من القرن الرابع للميلاد، حين كُبح التحول إلى اليهودية في أنحاء الإمبراطورية الرومانية، قامت في شبه الجزيرة العربية، في المنطقة التي توجد بها اليوم اليمن، مملكة يهودية قوية وكبيرة أخرى باسم حِميَر (بلغت حدودها حتى مدينة الرياض الحالية)(34). وقد ظلت مزدهرة نحو ١٥٠ عامًا وهوّدت رعاياها. ظلت هذه المملكة قائمة فترة أطول من مملكة الحشمونائيين اليهودية، لكنها دُحِرَت عام ٥٢٥ للميلاد على يد مملكة أكسوم(35) النصرانية. وقد ظل كثيرون من نسل المتهودين يهودًا حتى العصر الحديث.

في شمال إفريقيا، بعد انتصار النصرانية في جميع أنحاء حوض البحر المتوسط، دُفع ما تبقّى من الطائفة اليهودية، خاصة مَن هم من ذرية الفينيقيين السابقين، إلى عمق الداخل البربري؛ وقد قاموا هناك بتهويد بعض القبائل الكبرى. أفضت هذه العملية الخاصة بتغيير الديانة لاحقًا إلى إقامة مملكة متهودة في جبال الأطلس بلغت ذروتها في القرن السابع، تحت حكم دِحية الكاهنة(36). قادت هذه الملكة القوية المقاومة الباسلة للغزو الإسلامي وقُتلت في سبيل الله. وخلافًا للبربر من النصارى، الذين دخل معظمهم الإسلام كما يبدو، ظل البربر من المتهودين أوفياء لدين موسى حتى القرن العشرين.

وصل التهود الديناميكي إلى منطقة شمال الحبشة الحالية أيضًا؛ إذ نشأت منذ نهاية القرن الرابع طائفة متهودة شميت «بيتا إسرائيل» (كان اسمها المستهجن فلاشا)، تطورت في مقابل تمدد النصرانية في مملكة أكسوم. ازدادت هذه الطائفة قوة وأقامت مملكة في جبالسيمن، وقد كانت، مثلها مثل مملكة حِميَر فيما وراء البحر الأحمر، في صراع مستمر مع نصارى أكسوم. ظلت هذه الطائفة أيضًا يهودية، رغم المضايقات العديدة، وفي نهاية القرن العشرين شمح لها بالهجرة إلى إسرائيل.

أدّى وصول نازحين يهود من أرمينيا ومن مناطق الإمبراطورية البيزنطية -كان

من بينهم كما يبدو وُعّاظ موهوبون- إلى مناطق مملكة الخزر في منتصف القرن الثامن للميلاد إلى تهويد هذه المملكة لمدة تتراوح بين ٢٠٠- ٣٠٠ عام. صحيح أن مساحة الخزر اليهودية - من مدينة كييف في الشمال وحتى شبه جزيرة القرم في الجنوب، ومن منابع نهر الفولجا وحتى جورجيا الحالية - تقلصت بشكل كبير في نهاية القرن العاشر؛ إلا أن العاصفة المنغولية فقط في القرن الثاني عشر مَحتها تمامًا ودفعت بجزء من جموع متهوديها في اتجاه الغرب إلى شرق أوروبا، وهوَّد هذا السرب البشري في طريقه كثيرين آخرين. أسهم هذا الحدث التاريخي في أن ينشأ في هذه المساحات على وجه التحديد التجمع الديموجرافي اليهودي الأكبر في القرون التالية؛ وهو تجمع لا يمكن مقارنته من ناحية العدد بتجمعات يهودية أخرى في العالم.

ليس من قبيل المصادفة أن يجزم بن تسيون دينور، أبو فلسفة التاريخ الإسرائيلي الذي شغل منصب وزير التعليم في إسرائيل - في فترة كان ما يزال من الممكن فيها التعبير عن موقف بشأن الأصل المتنوع لليهود دون أن يُنظر إليك على أنك «معاد للسامية» - بأن مملكة الخزر كانت «أم الجاليات، أم إحدى الجاليات الكبرى، جالية بني إسرائيل في روسيا، وليتوانيا وبولندا».

بداية العلاقات اليهودية - النصرانية في أوروبا

«من شبه المؤكد، أن اليهودي في بلاد الغال في عصر جونترن وتشيلفريك كان في معظم الأحوال مواطنًا غاليًا يقيم شرائع اليهودية».

إرنست رينان،

اليهودية بوصفها عِرقًا وبوصفها دينًا، ١٨٨٣

صحيحٌ أن التشريعات المناهضة للتهويد في الإمبراطورية الرومانية المتنصرة قد حددت وضع العقيدة اليهودية وصاغت طبيعتها المنغلقة والمتخوفة، لكن لا ينبغي الاستنتاج من ذلك بأي شكل من الأشكال أنها تُرجمت إلى اضطهادات جماعية أو إلى إلحاق الأذى بالأفراد. لم يخلق الانقسام النهائي للإمبراطورية إلى شرق وغرب في نهاية القرن الرابع والانهيار النهائي للإمبراطورية الغربية في البداية مناخًا معاديًا ومتطرفًا واستثنائيًا لليهود. وكذلك لم تهتم القبائل الجرمانية التي ورثت روما باللاهوت النصراني بخاصة، ولا بعدوه اليهودي بالطبع، ولم تُبدِ، كما يبدو بسبب التراث الوثني طويل المدى، تعصبًا دينيًا.

صحيح أن كلوبيس الأول، زعيم الفرنكيين، أصبح نصرانيًا منذ عام ٤٩٦ للميلاد، وأن كل النُّخَب الحاكمة في أوروبا تقريبًا حتى القرنين التاسع والعاشر قد تنصَّرت، لكن ستمر فترة طويلة حتى يسود الإيمان بإله واحد لدى دوائر واسعة، وأكثر شعبية، من بين رعاياهم.

على سبيل المثال لقد بسط تيودوريخ، الملقب بـ «الكبير»، حاكم النمساويين القوطيين حتى عام ٥٢٦، وصايته على يهود جنوه وميلانو، ومنع إلحاق أي أذى بهم أو بِكُنُسِهم. والمثال المقابل لذلك تشيلدبرت الأول، ابن كلوبيس، وحاكم باريس وأورليان، الذي قرَّر لسبب ما في القرن السادس طَردَ اليهود القلائل من نطاق حكمه. وفعل فِعلَهُ حكامٌ آخرون؛ فقد تعامل الملوك الفيزيقوطيون(37) في إسبانيا، التي كان بها يهود أكثر نسبيًا، مع اليهود بصورة أقسى كثيرًا مما في أماكن أخرى.

لم يكن في أوروبا يهود كثيرون مثلما كان في محيط البحر المتوسط في فترة

الذروة في القرن الأول للميلاد، كما أنهم لم يهددوا التمدد النصراني ابتداء. صحيح أنه كانت ما تزال هناك بمدن شمال إيطاليا وجنوب بلاد الغال ومدن ساحل شبه جزيرة إيبيريا طوائف متهودة راسخة؛ لكننا كلما تقدمنا شمالًا في أوروبا ذات الغابات والزراعة فسنجدهم أقل فأقل. وبما أن التهود الواسع في الماضي كان يتم بين الحضريين، والمشتغلين بالتجارة، وحتى بين المهرة من أصحاب الحرف، وليس في أوساط المزارعين، فإن وجود اليهود في أوروبا، الزراعية في جوهرها، لم يكن ملموسًا بعد، ولا بارزًا بالتأكيد.

من المعروف، أن الحضريين، سواءً أكانوا يهودًا أم غير يهود، لم يستطيعوا الإسهام كثيرًا في استئصال الغابات وإعداد الأراضي للزراعة. فعلت ذلك الأديرة بخاصة. أصبحت هذه الأطر الدينية النصرانية، التي وُلدت في البداية في جنوب حوض البحر المتوسط، رائدة سواءً في تطوير وسائل حديثة لفلاحة الأرض أم في نشر المعرفة الثقافية بين النخب المتنصرة، كان الحفاظ على الأدب القديم، سيما نسخ الكتب ونشرها في المجتمع، الذي كان السواد الأعظم منه ما يزال أميًا، من المشاريع المذهلة للغاية للرهبان المثابرين.

ربما يسمح المجال هنا بالإشارة والتأكيد، ولو في جملة بين قوسين، على أن الأدب اللاهوتي النصراني لم يُنسخ وحده، رغم العداء البنيوي في النصوص نحو اليهودية؛ بل لم يتم الحفاظ بعناية على الآداب الكلاسيكية، هلينية ولاتينية «وثنية» فقط؛ بل إن الأمر المذهل للغاية في مجال العلاقات النصرانية - اليهودية هو أنه بفضل الكنيسة، تحديدًا، نجا أدب يهودي ثري ومتنوع، سابق للتلمود، من الضياع. والحقيقة التي تخالف الرأي الشائع هي أنه، باستثناء التوراة والمشنا والجمارا(38)، فإن اليهود لم يحبوا النصوص الفلسفية أو التاريخية (باستثناء فترة التعايش المشترك بين اليهود والعرب في إسبانيا). ولم يفسروها أو يترجموها أو يحفظوها.

المفارقة التاريخية الساخرة هي أنه لولا الكنيسة ونُسَّاخها الأوفياء، لما توافرت بين أيدينا هذه الأيامَ الأسفارُ الخارجية (الأبوكريفا(39)والكتب المنحولة) ومن بينها أسفار المُكابيين، ولا المؤلفات الفكرية لـ فيلون السكندري، ولا حَظِينا أيضًا بالتعرف على الأعمال الفلسفية التاريخية لـ فلافيوس يوسيفوس؛ بمعنى أنه

بفضل النصرانية المعادية فقط تعرفنا ولو إجمالًا شيئًا ما عن التاريخ اليهودي منذ بداية عصر الحشمونائيين وحتى تمرد المتعصبين (اليهود) التوحيدي الكبير! ولهذا يجب أن يكون واضحًا: لولا الكنيسة لما وُجدت أصلًا متسادا!(40)

مع ذلك يجب أن نعرف أيضًا أن بدايات الإقطاع، الذي بدأ في الترسخ في أوروبا بالتدريج، كان في حاجة في مرحلة معينة من تطوره إلى فئة «آخرين» لكي يؤدوا مهام اقتصادية كانت ما تزال خارجية وهامشية لهياكل علاقات الإنتاج الجديدة. وبما أن نشوء الإقطاع وما صاحبه من التزامات اقترَنَا بتحالفات وبقواعد من الولاء للنصرانية، فإنه لم يكن لليهود مكان «طبيعي» في هذا النسق الطبقي الجديد. فهم لم يستطيعوا شراء أراض والتحول إلى نبلاء أو إقطاعيين فرسان، ونظرًا لكونهم حضريين بخاصة فإنهم لم يصبحوا فلاحين مستعبَدين.

لكنهم استفادوا من حقوق إضافية أيضًا، باعتبارهم استثنائيين في المجتمع الزراعي الجديد: فلم يرتبطوا بالأرض واستطاعوا التحرك بحرية، خلافًا للسواد الأعظم من السكان العاملين. ونظرًا لأن دينهم لم يُحرِّم عليهم إقراض غير اليهود بالربا، فإنهم، وباستثناء الاشتغال بالتجارة وبعض الحِرَف، بدأوا في الاشتغال في مجالات الإقراض، وأصبح النبلاء من محدودي الدخل أو البرجوازيون، قبل أن يصيروا برجوازيين، مرتبطين بهم.

هكذا بدأت تتخلَّق للمرة الأولى صورة اليهودي الذي يُصيب الثراءَ من الإقراض بالربا في المخيلة الأوروبية - النصرانية. لم تُمثل حقيقةُ أنَّ حَفنة من اليهود دُفعت إلى امتهان هذه المهنة دفعًا بسبب الكنيسة ونمط علاقات الإنتاج، وليس بسبب خصائص تلمودية - لم تمثل عائقًا فعليًا أمام تَشكُّل أحد الأنماط طويلة المدى في التاريخ الأوروبي. «اليهودية صنو الربا، والربا أمر مُستنكَر»، نشرت الكنيسة الرسالة على رؤوس الأشهاد، وتلقفتها الجموع واستوعبتها جيدًا.

تجدر الإشارة إلى أن معاداة اليهود، سواءً من جانب الوثنية المصرية والرومانية أم من جانب نصرانية الحضارة البحر متوسطية، لم تُصنِّف اليهود على أنهم مُقرِضون بالربا؛ فالعلاقة التاريخية بين اليهود والمال، التي كانت حاسمة للغاية في الكراهية المتأخرة، هي نتاج حصري لأوروبا النصرانية وليس لآباء الكنيسة (رغم قصة يهودا الإسخريوطي الذي حصل على مقابل مادي لخيانته ليسوع). لم

تكن النظرة إلى جمع المال في حوض البحر المتوسط مماثلة على الإطلاق للنظرة إليه مع تطور الإقطاع.

وبالفعل أصبح بعض اليهود حتى القرن الثاني عشر مُقرِضين رئيسيين بالربا، سواءً للطبقة الأرستقراطية العليا أم لأفراد العائلة المالكة. لكن سرعان ما نحّاهمُ المصرفيون اللومبارديون(41) جانبًا. زاد التنافس بين المجموعتين من العداء نحو اليهود، وبسبب وضعهم المتدني دُفعوا دفعًا لتبعية أكبر كثيرًا لمُقرِضين أكبر منهم، وعن طريق ذلك أصبحوا مقرضين بالربا للطبقة المتوسطة والأدنى التي بسبب مشاكلها وديونها رأت فيهم أصحاب أعمال حقيرين.

لا تتوافر لدينا معطيات كافية عن أوضاع حياة اليهود الأوروبيين في تلك الفترة؛ لا نعرف كيف نشأت الطوائف اليهودية في وادي الراينس (هل هاجروا من الجنوب الأوروبي أم أن بعضهم تهود في مكان إقامته؟). ما نعرفه هو أن النصرانية أخذت في تعزيز قبضتها على الجماهير العريضة من الفلاحين في نهاية الألف الأولى للميلاد. أصبحت القصص عن معجزات «المصلوب» (يسوع) وعن مسؤولية اليهود عن إعدامه شعبيةً، وروَّج لها القِسيسون في صلوات يوم الأحد. نحن نعرف ذلك طبقًا للإحصائيات التي بين أيدينا عن الاستعدادات للحملة الصليبية الأولى،

التي بدأت عام ١٠٩٦م بخاصة. صحيح أن أوروبا في تلك الفترة كانت في حالة نمو اقتصادي مهم؛ حيث بدأت تظهر مدن تجارية وأخرى حرفية، وبُنيت بها كنائس من الطوب؛ لكن هذه التغييرات تحديدًا خلقت حراكًا اجتماعيًا، إن يكن متواضعًا فإنه أثار عدم ارتياح أوليّ وُجِّه إلى مسارات جديدة.

من حملة صليبية إلى عمليات طرد

كانت الذريعة للحملة الصليبية الأولى، التي بدأت بعد خطاب البابا أوربان الثاني في كارلمون بفرنسا، تحرير الأماكن المقدسة، وبخاصة كنيسة القيامة في أورشليم، التي استولى عليها (الكفار)(42) المسلمون. تَجنَّد للحملة نبلاء وفرسان لا يملكون أرضًا، ولصوص يبحثون عن الذهب والكنوز والكثير من الفلاحين الفقراء. ونظرًا لأنه لم يكن هناك مُمؤلون للحملة، فقد أغار الصليبيون الـ «شعبيون» مثل الجراد على الأماكن المأهولة بالسكان وهم في طريقهم الطويلة إلى الشرق، ونهبوها. لكن الظاهرة الغريبة في هذه الحملة الدينية الأولى كانت التعامل القاسي مع اليهود

الذين التقاهم الصليبيون في طريقهم. في وادي الراين قُتل مئات عديدة من الرجال اليهود، فيما اغتُصبت نساؤهم، وبناتهم وأبناؤهم أمام أعينهم. قُتِلَ كثيرٌ من اليهود أنفسِهم ومن أبنائهم حين أُجبِروا على التنصر بالقوة.

غذَّت مثل هذه الأفعال اليائسة المرعبة – لاحقًا - فِرياتِ دمٍ (43)عديدةً، اتُّهِم فيها اليهود بقتل أطفال من النصارى، وأدت إلى مذابح إضافية. صحيح أن الكنيسة أدانتِ المذابح؛ لكنها فعلت ذلك بصوت واهن. في المقابل، بدأت الطبقة الدنيا من القساوسة في آلاف القرى في إشاعة المزيد والمزيد من الحكايات المسمومة وهيأتِ الوعي الشعبي المعادي لليهود.

كانت هذه ربما المرةَ الأولى في أوروبا التي ارتقَت فيها جموعٌ قبلَ عصريةٍ مسرحَ التاريخ، ووجدَت هذه الجموع، المنفلتة، من أجل بَلوَرة نفسها، عَدوًّا مُتوهَّمًا وخائنًا. ليس من قبيل الصدفة أن يهودا الإسخريوطي أصبح رمزًا متجسدًا للخيانة الحقيرة والجبانة. طبقًا لمصادر عربية، حين وصلت الحملة الصليبية في نهاية الأمر إلى أورشليم، كانت المذبحةُ التي نُفِّذَت في المسلمين، وفي اليهود وبخاصة في (طائفة) القرّائين(44) منهم (الذين كان عددهم في المدينة أكبر من عدد اليهود الربانيين) إحدى الأفعال الأكثرِ بشاعة التي نُفِّذَت تحت راية النصرانية الكاثوليكية. طُرِدَ اليهود القلائل الذين نَجَوا من المذبحة من مدينتهم المقدسة ولم يُسمح لهم بالعودة إليها طوال فترة وجود مملكة أورشليم النصرانية، أي من عام ١٠٩٦ حتى ١١٨٧م. سُمح لذرية الناجين بدخول المدينة في ١١٨٩م فقط، بعد احتلالها النهائي على يد صلاح الدين.

دَفعَتِ المذابحُ في ألمانيا، وبعد ذلك في أورشليم والإشاعات الكاذبة التي صاحبَتها، الكنيسةَ إلى الرد، نظرًا لأنها تعارضَت بشكل صريح مع النموذج الذي وضعه القديس أوغسطين: لا يجب قتل اليهود عمدًا. منذ ١١٢٠م قرر البابا كليكتوس الثاني نَشرَ رسالة: **حول اليهود** (*Sicut Judaeos*) نصَّت بشكل قاطع على وجوب عدم المساس باليهود، وبعدم فرض التنصُّر عليهم بالقوة، وبعدم نهب ممتلكاتهم وبعدم مقاطعتهم. صادَقَ على الرسالة باباوات آخرون حتى القرن الخامس عشر، وبذا برّأتِ الكنيسة ساحتها وضميرها، لكنها منعت في هذه المرحلة المبكرة أيضًا...(45) إبادة يهود أوروبا.

أسهمت الحملات الصليبية التالية لاحتلال الأرض المقدسة في توحيد السلطة الكاثوليكية، ويمكننا التأكيد أنها كانت أقل دموية وهمجية من الأولى. مع ذلك، يجب أن نضيف أنه كانت هناك حملات أيضًا بداخل أوروبا استهدفت إبادة الملحدين والكافرين الذين غُدُوا أكثر خطرًا من أنصار شريعة موسى، الأقل نسبيًا. في بداية القرن الثالث عشر أدَّتِ الحملة الصليبية الألبيجينية(46) - على سبيل المثال - إلى إبادة عشرات الآلاف من أفراد طائفة الكتاريين إبادة تامة (وبمناسبة ذلك ألحَقَت هذه الحملة أيضًا الأذى بيهود لنجدوك، الذين عاشوا معهم في سلام).

كان إينوكينتيوس الثالث، الذي أدار هذه الحملة الوحشية، صاحب مبادرة عقد مؤتمر لترانو لعموم أوروبا في ١٢١٥م، الذي حظر على اليهود، ضمن عدة أمور أخرى، الإقراض بالربا، أو شَغل مناصب عامة أو الزواج من نصارى أو ممارسة الجنس معهم. وأرغمهم حتى على ارتداء أشياء خاصة مثل قبعة أو شارة مميزة (طُبقت هذه اللوائح على المسلمين أيضًا). أدَّى عزل اليهود إلى تعاظم انعزالهم، الذي بدأ يتبلور أكثر للمرة الأولى كما سبق وذكرنا في القرن الرابع للميلاد مع سَنّ القوانين الأولى لـ قسطنطين.

كان للكنيسة الكاثوليكية، بدءًا من القرن الحادي عشر للميلاد وحتى القرن السادس عشر، الذي ظهرت فيه (حركة) الإصلاح البروتستانتي (رغم بداية عصر النهضة) - كان لها هيمنة عريضة على وعي المثقفين، وبمستوى مختلف على وعي الملوك والنبلاء وجموع الفلاحين. كان طرد اليهود إبَّان وقوع أزمة مالية أو بعد انتشار فِرية دمٍ معادية لليهود، أمرًا مقبولًا من معظم الملوك النصارى، وقد استخدموا هذه الأداة في كثير من الأحيان. وإذا كان اليهودي المشرَّد حتى الآن أسطورةً نصرانية في جوهرها، فقد أصبح بدءًا من القرن الثاني عشر واقعًا تاريخيًا متجسدًا وشبه مألوف.

كما أشرنا فيما تقدَّم، صدر منذ القرن السادس، في عام ٥٣٣م، أمرٌ بطرد اليهود من باريس. وفي عام ٦٣٣م كرر الملك دجوفرت الأمر نفسه وطردهم مرة أخرى. لكن هذه الممارسة اتخذت في القرن الثاني عشر فقط حجمًا أكبر. وفي عام ١١٨٢م، فور تنصيب فيليب الثاني ملكًا لفرنسا، صودرت ممتلكات اليهود من أجل مَلءِ خزانة المملكة الفارغة بخاصة، ثم طُردوا بعد ذلك بعام من المملكة. وقد سُمح لهم

بالعودة إليها لاحقًا بعد ١٦ عامًا، بعد أن حازوا ممتلكات جديدة.

في عام ١٢٧٠م حذا لويس التاسع، عشية وفاته، حذو فيليب الثاني، وطرد جزءًا من ذرية اليهود الذين عادوا إلى فرنسا قبل ذلك بـ ٧٢ سنة، وحظر على الباقين الإقراضَ بالربا، وفرَضَ غرامة على الذين لم يَضعوا على ملابسهم شارةً تُعرِّف بهم. قبل ذلك وفي عام ١٢٤٢م اشترك هذا الملك القديس -وهكذا يُسمَّى حتى اليوم- في محاكمة باريس الشهيرة، التي أثبت فيها بعض القساوسة واسعي المعرفة أن التلمود يذم يسوع والنصرانية. وفي نهاية المحاكمة جيء بمئات من كتب التلمود إلى «بلاس دي جيرب»، وهو الميدان الكبير القائم اليوم أمام مبنى بلدية باريس، وأحرقت أمام الجموع المبتهجة؛ على كلٍّ لن تكون هذه المرة الوحيدة في التاريخ التي تُحرق فيها كتب!

في عام ١٣٠٦م، واصل فيليب الجميل تراث العلاقات «اليهو نصرانية» حين قرر طرد كل اليهود مرة أخرى ومُصادرة ممتلكاتهم. سمح الملك «المعتدل» بالطبع لأولئك الذين وافقوا على التنصُّر بالبقاء في المملكة. بعد ذلك بتسع سنوات سمح لويس العاشر بعودة المطرودين بقيود معينة، ومرة أخرى عاش بعض اليهود في فرنسا حتى مجيء شارل الرابع، في عام ١٣٢٢م، الذي لم يكن راضيًا عن كمِّ الأرباح الذي حُصِّل منهم؛ ولذا طردهم مرة أخرى.

حتى عام ١٣٩٥م آنذاك طرَدَ شارل السادس اليهود مرة أخرى، عاد يهود كثيرون إلى المملكة، ورغم وقوع مذبحة «صغيرة» في باريس خلال فترة تمرد حملة الفؤوس(47) عام ١٣٨٢م أثرَى اليهود مرة أخرى وحققوا ازدهارًا في سلام. كان هذا، كما سبق أن ذكرنا، حتى نهاية القرن الرابع عشر. انتقل جزءٌ من اليهود المطرودين إلى بروفانس، التي لم تكن قد ضمت بعد للمملكة، إلى أن طردهم منها أيضًا لويس الثاني عشر. أفلت بعض المشمولين بقرار الطرد الجائر بانتقالهم إلى «مدن البابا»، وبخاصة إلى أفينيون. اتخذت الكنيسة موقفًا تقليديًا: لم تَستنكِر عمليات التنكيل المتكررة باليهود، لكنها أبدت في الوقت نفسه شفقة نصرانية.

من إنجلترا إلى إسبانيا

في عام ١٢٩٠م قرر الملك إدوارد الأول، الذي اشترك في الحملة الصليبية الثامنة،

أنه يجب على يهود إنجلترا مغادرتها إلى الأبد. لا نعرف عددهم الدقيق، لكن نميل إلى تقديره ما بين ألفين وعشرة آلاف (بعضهم وصل إلى إنجلترا بعد الطرد من فرنسا). سُمح للمطرودين بأن يأخذوا معهم أغراضهم ومنقولاتهم لكن بيوتهم «أُممت» وآلت إلى ممتلكات الملك. وأولئك الذين حاولوا التهرب من الطرد أعدموا، لم يتفاجأ الرعايا الإنجليز بالطبع من طرد اليهود؛ فقبل ذلك بعامين أعدم الملك ثلاثمئة يهودي شنقًا، وقبل ذلك بكثير حُظر على اليهود الإقراض بالربا. بل إنهم اتُهموا حتى بتزوير العملات وأُجبروا، بداية من سن السابعة، على ارتداء شارة صفراء على هيئة لوحَي العهد(48) للتعريف بهويتهم.

لم يُلغ أمر الطرد الإنجليزي رسميًا حتى يومنا هذا، لكن اليهود بدأوا في العودة إلى المملكة مع اندلاع الثورة البوريتانية عام ١٦٥٥. من المثير جدًا للسخرية حقيقة أن وليام شيكسبير، الذي كتب عام ١٥٩٦ مسرحيته الشهيرة **تاجر البندقية**، لم يُتَح له التعرف في حياته على أي يهودي حقيقي. لكن خياله العبقري، المتشبع بالمعرفة والتعليم النصرانيين، أدى المهمة كما يبدو.

طُرد يهود في مناسبات مختلفة من بافاريا، وليتوانيا، وصقلية، وسردينيا، ونُهبت ممتلكاتهم مرارًا وتكرارًا من جانب السلطات. لكن الطرد الذي حُفر في الذاكرة اليهودية أكثرَ من أي طرد آخر كان بالطبع الطردَ من شبه جزيرة أيبيريا. ازداد عدد السكان اليهود في شبه جزيرة أيبيريا أكثر مما في أي مكان آخر في أوروبا بعد استيلاء المسلمين عليها عام ٧١١م. وبما أننا لا نعلم شيئًا عن أي هجرة من مملكة يهودا إلى إسبانيا البعيدة، فإنه يمكن الافتراض بأن العقيدة اليهودية الأولى التي انتشرت فيها كانت تشبه في البداية تلك التي سادت في شمال إفريقيا. حصل الفينيقيون/ القرطاجيون، الذين يتحدثون لغة مشابهة تقريبًا للغة العبرية واستوطنوا هناك على امتداد الساحل، على كتب التوراة قبل ترجمتها إلى اليونانية، وتهودوا. وزاد بعض التجار الإيطاليين اليهود الذين وصلوا إلى المنطقة مع الجيوش الرومانية من حجم الطوائف الصغيرة بعض الشيء، إلى أن أوقفت الزيادة مع مجيء النصرانية.

بدأ الانفجار السكاني اليهودي، إذًا، مع الاحتلال العربي - البربري فقط. كان طارق بن زياد، المُخطِّط الاستراتيجي الكبير الذي أدار بداية الغزو (الذي سُمي مضيقُ

جبل طارق على اسمه/ جيبرلتار)، من البربر من قبيلة زنطا (من مجموعة القبائل التي حكمتها في الماضي دحيه الكاهنة). يمكننا التخمين بأن جنودًا متهودين من البربر أيضًا من شمال إفريقيا ممَّن استقبلوا بحماس من جانب اليهود المحليين كانوا ضمن «المحتلين» المسلمين. يرتبط أساس التعايش الخاص بين المسلمين واليهود، والزيادة السكانية المذهلة للأخيرين على ما يبدو بهذه المرحلة التاريخية الجديدة.

ازدهرت طوائف يهود إسبانيا تحت الحكم العربي منذ نهاية القرن الثامن وحتى القرن الثاني عشر، سواءً من الناحية الديموجرافية أم الثقافية، أكثر مما في أي مكان آخر. كان بإمكان اليهود شراء الأراضي، وتبوُّء أرفع المناصب الوزارية، وفي مقابل قانونية اللغة العربية الأدبية تبنَّى اليهود عبرية جديدة(49) أيضًا، ألَّفوا بها شعرًا وكتبًا علمية وفلسفية شذت عن التفاسير التلمودية المعتادة. كان الحاخام أفراهام بن دافيد الأول والحاخام موسى ابن ميمون، أهمَّ فيلسوفَينِ يهوديين بعد فيلون السكندري، من أصل أيبيري.

بدأ العصر الذهبي في التقوض للمرة الأولى مع احتلال المرابطين والموحدين، الذين أتوا من شمال غرب إفريقيا، إلى الأندلس، من أجل قَمع الكافرين من غير أتباع محمد. اضطر الحاخام أفراهام بن دافيد الأول وأسرة الحاخام موسى بن ميمون إلى الفرار من وجه المتعصبين المسلمين(50). كان هذا بداية تراجع القوة الاقتصادية والثقافية للطوائف اليهودية في إسبانيا، الذي سيؤدي في النهاية إلى خرابها.

لم يُحسّن إعادة احتلال النصارى لإسبانيا من محنة المؤمنين اليهود، وإنما قوَّض أمانهم المجتمعي، والمادي بصورة أشد. تجددت منذ بداية القرن الثالث عشر فِريات الدم وأعمال التنكيل، التي بلغت ذروتها في عام ١٣٩١م. وتجدر الإشارة إلى أن الطاعون قد تفشَّى في أوروبا منذ منتصف القرن الرابع عشر، واتُّهم اليهود في جميع أنحاء القارة بتسميم الآبار وباستخدام دم الأطفال النصارى في طقوسهم الشيطانية. وفي إسبانيا -التي كان بها يهود أكثر مما في بلدان أوروبية أخرى- تدهور الوضع بخاصة، وأصبح أكثر عنفًا وخطرًا. وفي سيفليا هُدمت الكُنس، وفي الأندلس وقشتالة وفالينسيا قُتِلَ اليهود في الشوارع.

في معظم المراكز الحضرية أرغم اليهود على التحول عن ديانتهم، وقد فعل آلاف مؤلَّفة ذلك بالفعل من أجل البقاء على قيد الحياة. صحيح أن السلطات والكنيسة حاولا كبح جماح المعتدين في بعض الأحيان ومنعًا عمليات إبادة جماعية، خاصة في فترة حكم بيدرو الرابع، لكنهما سعَيا في الوقت نفسه إلى عدم إثارة سخط الجموع المتذمرة التي بَحثَت عن كباش فداء من أجل القضاء على مصدر متاعبهم.

في النهاية، في عام ١٤٩٢م قرر فرديناند حاكم أرجون وزوجه إيزابيلا الأولى ملكة قشتالة، الـ «ملكان الكاثوليكيان» من مؤسسي محاكم التفتيش، طرد كل اليهود والمسلمين الذين لم يَرغبوا في التنصر. اضطر ما بين ٢٠ إلى ٤٠ ألف يهودي -لا توجد معلومة موثوقة تؤكد الأرقام- ممن رفضوا التحول عن دينهم إلى مغادرة بلادهم. بعضهم هاجر إلى البرتغال، وبعضهم اتجه إلى إيطاليا واليونان، وإلى مناطق أخرى خاضعة للإمبراطورية العثمانية. هاجرت أقليَّة منهم أيضًا إلى مناطق وسط وشمال غرب أوروبا أو إلى سواحل شمال إفريقيا (التي كانت أقل جاذبية من الناحية الاقتصادية). بعد ذلك بخمس سنوات طُرد معظم اليهود من مملكة البرتغال، بعضهم كان ممن طُرد من إسبانيا واضطروا إلى حمل عصا الترحال مرة أخرى. مُحِيَ الوجود اليهودي العتيد من شبه جزيرة أيبيريا إلى الأبد.

من المعتاد الافتراض بأن ما يُفرِق بشكل جوهري بين العداء النصراني لليهود والعداء المعاصر لهم هو مفهوم «نقاء الدم». للوهلة الأولى، لم يكن التصنيف العرقي القائم على الـ «جسد» موجودًا في أيديولوجيات الكراهية والاحتقار التي سبقت ظهور علوم التطور في نهاية القرن الثامن عشر. لكنَّ أحد الأمور المذهلة في العلاقات الـ «يهو- نصرانية»، قبل وبعد الطرد من إسبانيا، هو الأيديولوجية الماهيوية التي بدأت تظهر عند باحثين متصلبين لمحاكم التفتيش، وعند قساوسة أُميِّين أو حتى برجوازيين حضريين - نصارى قدامى تنافسوا اقتصاديًا مع المتحولين الجُدُد عن دينهم. أصبح الأخيرون، الذين كان من المفترض أن يكونوا نصارى كاملِي الأهلية طبقًا للشريعة الكنسية بعد تحولهم عن دينهم، موضعَ ريبة بسبب أصلهم (اليهودي أو الإسلامي) في طليطلة، على سبيل المثال، نُصَّ في عام ١٤٤٩م على أن المتنصرين لا يمكنهم شَغل مناصب عامة. بدأ نقاء الدم (Sangre De Limpieza) يصبح مَبدأً مُوجِّهًا في التمييز ضد النصارى الجدد. بدأت شجرة

النسب الـ «بيولوجية» في تحديد منح حقوق وامتيازات للطبقات العليا الحضرية بخاصة. وأسهم أيضًا كما يبدو في صدور قرار طرد اليهود من كل شبه جزيرة أيبيريا.

لم يُطبَّق نقاء الدم على المتحولين عن دينهم فقط. لقد امتد حتى ليدعم ويرعى هيراركية في المراحل الاستعمارية في العالم الجديد بالقارة الأمريكية. عزل الكاستا (الأصل أو العرق، بالبرتغالية) لاحقًا مواليد أوروبا عن الهنود الحمر ذوي الدم المختلف. والبقية، كما هو معروف، ستأتي في القرن التاسع عشر.

غُرباء في الإنسانية: من إيراسموس(51) إلى فولتير(52)

«لستَ من الضيعة، لستَ من القرية، أنت لا شيء».

فرانتس كافكا،

الضيعة، ١٩٢٦.

كانت الثورة الإعلامية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر أساسًا لبداية التغييرات الحاسمة في العلاقات الأيديولوجية للإنتاج في أوروبا. سيكون من الصعب فهم إعادة تشكُّل الهيمنة الكاثوليكية في أنحاء القارة والتصدعات التي اعترتها، أو التمدن لاحقًا، من دون ظهور الطباعة. فقد صدرت في غضون نصف قرن مئات الآلاف من الكتب، وما لا يقل أهمية عن ذلك، أنها صدرت باللغات المحلية لا باللاتينية. انكسر احتكار صياغة الوعي في أوروبا إلى الأبد، وهو ما هيأ ظهور حساسيات دينية وفلسفية جديدة وما سيُسهم لاحقًا في ظهور القومية.

في هذا الإطار المحدود لن أستطيع الوقوف على كل الفروق الدقيقة في مواقف المفكرين البروتستانت وفلاسفة الإنسانية والتنوير نحو اليهودية واليهود؛ ومن ثم سأتوقف باختصار عند ثلاثة مفكرين، ربما مِن أبرز مَن صاغوا التصور والفكر اللذين يقفان على عتبة الحداثة. وقد لا يمثلون كل الحساسيات الجديدة، ولا يجب بالتأكيد الاستنتاج من كلامهم بأن النظرة إلى اليهود قد ساءت أو تحسنت. لكن من المفاجئ وليس من الواضح دائمًا: لماذا ظل العداء تجاه اليهودي قويًا وغريبًا جدًا في عصر كسر الأعراف الموغلة في القدم.

ولد إيراسموس في روتردام، وقد قيل عنه: إنه على الرغم من أنه كان ابنًا غير شرعي لأحد النبلاء فقد أصبح الأب الشرعي للإنسانية الأوروبية، والمفكر الذي بدأ يضع الإنسان -بدلًا من الإله- في بؤرة الوجود، لكنه في غضون ذلك أخرج اليهودي من هذه البؤرة. إيراسموس هو مَن قال بسخريته المعهودة: «إذا كان يتوجّب علينا لكي نكون نصارى جيدين أن نمقت اليهود، فإننا كلنا نصارى جيدون». أضمر مؤلف كتاب **في مديح الحماقة**، وهو ربما كان أول كتاب في التاريخ يحقق أعلى المبيعات، كراهيةً شديدة لليهود ولم يتردد في الكشف عن هذه الكراهية (وعن كراهيته للنساء أيضًا)، ليس في خطاباته العديدة فقط إلى أصدقائه؛ وإنما في

كتاباته المنشورة في بعض الأحيان أيضًا.

صحيح أنه لم يكتب قطُّ مؤلَفًا خاصًا بأبناء الديانة الموسوية، إذ لم يكونوا قطُّ في بؤرة أفكاره، لكن عداوتَه تُجاههم رافقَت فكره منذ بداية مسيرته. في كل مرة انتقده أحدهم بسبب تراجمه أو تفسيره للتوراة، تساءل مندهشًا عما إذا كان الدم اليهودي يجري في عروق مُنتقدِهِ. وقد وصف العبرية القديمة، محتذيًا القديس هيرونيموس(53)، بأنها لغة همجية. لقد وجد صعوبة في إتقانها، وخشي من أن يشكل تحديثها في عصره خطرًا على النصرانية. كما أن كراهيته لليهود جعلته يرى أنهم متآمرون يحاولون إشاعة وثنية جديدة في أنحاء أوروبا. بالإضافة إلى ذلك زعم أنه من المعروف أن اليهود يسجدون منذ الأزل للعجل الذهبي، وأن جمع المال أسمى تطلعاتهم.

لم يكن بعيدًا عن أن يرى في يهود العالم تنظيمًا يستهدف القضاء على الكنيسة، وكتب صراحة لأحد الأصدقاء في عام ١٥١٧ أنه «لا شيء أخطر على شريعة يسوع من الوباء الشرير للغاية المسمى: اليهودية». يَرِد مصطلح «عرق» في ثنايا مقالاته في سياق الحديث عن اليهود. لذا ظلت إسبانيا -على سبيل المثال- في نظره حتى بعد طرد اليهود منها أرضًا يهودية بامتياز بسبب المتحولين العديدين عن دينهم ممن بَقُوا بها.

مارتن لوثر مُحدث الإصلاح(54)

عندما نشر مارتن لوثر، الأب الروحي لحركة الإصلاح الديني، أطروحاته الـ ٩٥ المناهضة لسلطة الكنيسة في عام ١٥١٧، أبدى إيراسموس تعاطفًا على الفور معه حتى إنه شرع يتبادل الرسائل مع هذا القس الثوري. صحيح أنه لم يشأ أن يتخذ موقفًا قاطعًا مُؤيدًا للإصلاح، لكنه تعاطف مع نفور مارتن لوثر العميق من نفاق الكنيسة وفسادها وحماقتها. تحول لوثر، كما هو معروف، إلى حامل لواء التمرد ضد الهيمنة الكاثوليكية، وفي غضون ذلك أصبح مبشرًا سواءً بالفردانية الجديدة أم التعددية الدينية في أوروبا. لا علم لنا بمدى معرفته بنظرة إيراسموس تجاه العقيدة اليهودية وتجاه اليهود. لكنه كان يرفض جملة وتفصيلًا وبوضوح في بداية مسيرته تحفظ الإنساني الكبير(إيراسموس) تجاه اليهود.

تمثّل تعاطفه الأوليّ مع أتباع الديانة الموسوية المهانين والممقوتين منذ عام ١٥٣٢. في كتيب صغير ولاذع حمل العنوان عن كون يسوع يهوديًا بالولادة، تعاطَف لوثر تعاطفًا كبيزا مع المصير اليهودي الثقيل وحمّل الكنيسة مسؤولية أن نسل بني إسرائيل التوراتيين لم يتنصّروا بعد. لو أن الرسل الأقدمين، الذين كانوا في البداية وُغَاظًا يهوذا، تعاملوا مع غير المؤمنين مثلما يتعامل الكاثوليك مع اليهود، لَمَا تنصَّر أحدٌ على الإطلاق. يجب التقرب من اليهود، والعطف عليهم، لأنهم بهذا الشكل فقط سيستوعبون وسيتبنّون رسالة.الرحمة والمحبة لـ «مصلوب» لـ (يسوع).

حقيقةُ أن لوثر أكد أن يسوع كان يهوديًا بالولادة هي مِن الحقائق المهمة في حالته: كان «المصلوب» ورسلُهُ حتى يهوذا، ولاحقًا اختاروا النصرانية بإرادتهم الحرة فقط. ليس لديه في هذه المرحلة نظرية بديلة لـ «شعوب»، وإنما تصورٌ يرى في النصرانية امتدادًا لعقيدةٍ. لذا كان لوثر متفائلًا بشأن مستقبل يهود عصره: التعامل الصحيح سيجعلهم يتنصرون سريعًا. لقد رفض بشكل صريح الماهيوية (55)الضالة والمضللة التي ترسخت في العقيدة الكاثوليكية تجاه اليهود، ودعا أتباعها إلى الانضمام إليه في كفاحه ضد الفساد الكنسي.

بعد ذلك بعشرين عامًا، في ١٥٤٣، أصدر لوثر الناضج كتابه **عن اليهود وأكاذيبهم**، الذي يمثل أحد المؤلفات الأكثر معاداة لليهود في بداية العصر الحديث. من الصعب معرفة أسباب التحول الروحي الذي اعتراه، لكن علينا ألّا ننسى أن اللاهوتي الألماني اتُّهم في بعض الأحيان من جانب خصومه بأنه يهودي في السر، وبداية من ١٥٣٦ عُثر في خطاباته وفي تعليقاته العامة على تحفظات متكررة على «المختونين»(56). من الجائز جدًا أنه أُحبِط إحباطًا عميقًا من أنهم لم يأخذوا في الاعتبار مواقفه المؤيدة لليهودية ولم ينضموا بجموعهم إلى النصرانية النقية والمتجددة. على أي حال لقد اتهمهم صراحة بأنهم حاولوا استغلال التمزق الذي أحدثه في النصرانية لصالحهم، وأثَّروا بالسلب على تيارات معينة في (حركة) الإصلاح. وقبل ذلك شك في أنهم حاولوا تسميمه عندما أرسلوا له طعامًا كاشير(57).

يمكن الافتراض بأن لوثر فقَدَ كل أمل إزاء الرفض العنيد من جانب اليهود لقبول

بشارة المسيح، وبدأ ينظر إليهم حتى في مرحلة معينة على أنهم أبناء أبالسة بالفعل لا يمكنهم التغير وليسوا آدميين ضالين أو عُميًا. لقد جرفته الماهِيَوِيَّة المناهضة لليهود في نهاية المطاف تمامًا، واقترح بوقاحة سلسلة من الإجراءات من أجل كبح وجودهم الخطر والسام: يجب إحراق الكُنس بما فيها من كتب التلمود وكتب الصلاة. يجب منع الحاخامين من التدريس في باتيه همدراش/ المدارس الدينية اليهودية. يجب مصادرة ممتلكاتهم وهدم بيوتهم، ومنعهم من السفر على الطرق الرئيسية، وعدم السماح لهم بمزاولة التجارة ولا الإقراض بالربا بالطبع. وأضاف أيضًا في ختام كتاب الكراهية أنه يجب إرسال هذه «الديدان السامة التي تنفث السموم» إلى معسكرات سُخرة أو طردها إلى الأبد.

في إصدارات أخرى عشيةَ وفاته طرح لوثر أفكارًا أخرى تتعلق بماهية اليهود. وجدَتِ الجملة البائسة والصادمة لـ يسوع في العهد الجديد عن كون اليهود أبناء أبالسة في نهاية الأمر مكانًا مركزيًا في اللاهوت الإصلاحي الجديد. اليهود في نظر لوثر ليسوا مجرد أبناء عقيدة مختلفة ورافضة؛ وإنما مجموعة بشرية خاصة ومستقلة، لا ينبغي حقًا إبادتها، لكن يجب استئصالها وإبعادها عن جماعات المؤمنين من النصارى.

ونظرًا لمكانته المركزية في توليد المذهب البروتستانتي، خُصصت صفحات عديدة لكراهية لوثر لليهود ولإسهامها في صوغ الصورة الذهنية لليهودي في أوساط لوثريين بعامة ولوثريين ألمان بخاصة. حظي كتاب لوثر عن اليهود بطبعات عديدة في القرن السابع عشر، وأصبح ضمن قائمة كتب جافة مقيتة مختلفة، ونحن نعرف أنه أُعيد طبعه مرة أخرى في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر، ومرة أخرى في عام ١٩٣٣ مع صعود هتلر لسدة الحكم. ورُفع بفخر في الاستعراض المَهيب الذي رافق مؤتمر الحزب الدولي الاشتراكي في نيرنبرج. لكن سيكون من قبيل الاختزال المُخِلّ التساؤل ما إذا كان لوثر قد «أثر» على النازية.

المتحضر فولتير

سيكون السؤال أيضًا ما إذا كان فولتير قد «أثر» على الليبراليين في الثورة الفرنسية سؤالًا بلا طائل. بشكل عام يختار المتأثرون المؤثر حين يحتاجونه،

ودائمًا ما تكون أشكال «التأثير» أكثر تعقيدًا مما هو معروض في كتب التاريخ. لكن يمكن الافتراض بأن المجتمع يبحث ويستهلك كتبًا جديدة حين يتغير. تحوّل فولتير في حياته إلى رمز للعقلانية والتحضر، وقد قرأ مثقفو عصره، وليس أقل منهم الثوريون فيما بعد، مؤلفاته بِنَهمٍ.

من المعروف أنه إذا كان هناك شيء ما كرهه فولتير -الذي نشأ في مدرسة يسوعية- فإنه الكنيسة في المقام الأول. ومن الصعب أن نحدد مَن كان أكثر عداءً للكاثوليكية: لوثر أم فولتير. وبالقدر نفسه سيكون من الصعب تمامًا تحديدُ أيِّ الاثنين كَرِهَ أكثر من الآخر ما وصفه فولتير بـ «أبغض شعب على وجه الأرض».

توقف التحضر الشجاع الذي تبناه فولتير أمام تعقد المسألة اليهودية. والحق أن عداوته للتوراة تبدو للوهلة الأولى منطقية، وفي مواضع مختلفة من كتاباته نراه يعبر عن نفوره من النص التوراتي العتيق الذي يُثني على إبادة غير المؤمنين. بدا له احتلال أرض كنعان -بأمر إلهي- مع إبادة السكان الأصليين المقيمين بها فعلًا بربريًا، وتدل حقيقةُ أن هذا النص التوراتي حَظِيَ بقدسية من جانب اليهود والنصارى على حد سواء على المستوى المعيب لبنية الديانتين من الناحية الأخلاقية. لكن فولتير لم يتوقف هنا ولم يكتف بإدانة بني إسرائيل التوراتيين؛ بل نراه في **مقالة عن العادات وروح الأمم** نُشرت عام ١٧٥٦ لا يتمالك نفسه ويتطاول على اليهود المعاصرين له أيضًا:

«هم لا يعرفون كرم الضيافة، ولا العطاء أو الرحمة. سعادتهم البالغة في إقراض الأجانب بالربا الفاحش، وهذه الروح الربوية، التي هي أساس كل جُبن، متأصلة في قلوبهم (...). مجدهم يتمثل في إحراق وإبادة القرى الصغيرة التي يستولون عليها. هم يقتلون المسنين والأطفال ويحتفظون لأنفسهم بالبنات التي لم تبلغ الحُلُم فقط. هم يقتلون سادتهم وهم عبيد، ولا يعرفون الصفح حين ينتصرون. هم أعداء الجنس البشري. لم تعرف هذه الأمة الرهيبة أي آداب، أو علم، أو فن تقدمي في أي عصر».

استخدم قلة من أعداء فولتير من الكاثوليك المصطلحات التي استعان بها في إدانة اليهود. كان قليل من رجال التنوير كارهين لليهود مثله (أو كارهين للإسلام مثله). وإذا وجدنا هنا وهناك جملًا صعبة لدى البارون دي أولباك(58)، أو حتى

لدى داني ديدرو(59)، فإن أحدًا منهما لا يصل إلى حد الاحتقار السحيق والنفور البالغ لدى فولتير تجاه أبناء «الشعب الملعون». لم يُخف فولتير هذا الاحتقار والنفور، وحيث إنه كان غزير الاطلاع والقراءة فقد استمر في العثور على عيوب أخرى لدى اليهود. في مادة **«يهود»** بـ **الموسوعة الفلسفية** الثاقبة، التي نشرها عام ١٧٦٩، بدا واضحًا وضوح الشمس أن فولتير يرى في اليهود شعبًا غريبًا وشاذًا، شعبًا جاهلًا وبربريًا. وهو يجمل القول، متأسيًا بالتراث الكاثوليكي العتيد، بأنه لا يجب بسبب ذلك إحراق أبناء هذا الشعب المقيت:

هل كان فولتير عنصريًا حديثًا؟ ليس بالضبط. بدأ «التقدم العلمي» الآن فقط في تصنيف الأعراق الإنسانية بالفعل طبقًا لهيراركيات تماثل تصنيف الأنواع في عالم الحيوانات. لكن نظرًا لأن فولتير كان رائدًا بمفاهيم عديدة مقارنة بمجايليه، فسنجد لديه منذ كتابته **مقالة عن الميتافيزيقا** عام ١٧٣٤ تصريحات من قبيل «(...) أرى آدميين يَبدُون لي أرقى من الزنوج، مثلما أن الزنوج أرقى من القرود، ومثلما أن القرود أرقى من المحار وحيوانات أخرى من هذا النوع».

في الهيراركيا البشرية لدى فولتير احتل اليهود مرتبة متدنية بشكل خاص. هناك باحثون خمَّنوا أنه ربما تكون ديون فولتير الكثيرة لمقرضين يهود بالربا -وكان الفيلسوف محبًا للمتع مسرفًا في ذلك- هي التي جعلته يكره اليهود وينفر منهم. وهناك آخرون التمسوا فَهم هذا العداء على ضوء الخلفية العامة لفلسفته الراديكالية المناهضة للدين.

من الصعب قبول أمثال هذه الحجج إذا أخذنا في الاعتبار ملاحظات فولتير الدقيقة في قضايا أخرى ومتنوعة، وخاصة حساسيته المفرطة تجاه أشكال الظلم، والاحتيال والمساس بالضعفاء. لم تسر فلسفته في التسامح، التي غذت الرؤى التقدمية في عصره، على اليهود، ويبدو أنه من المتعذر الحصول على أي تفسير منطقي لكراهيته لليهود، تلك الكراهية التي كان لها إرثُ أيضًا.

في عام ١٩٤٢ قرر هنري لابرو، الذي كان أستاذًا للتاريخ في جامعة السوربون، تدريس مساق دراسي عام عن «تاريخ اليهود». ونشر مرجعًا للمساق عبارة عن مجلد بعنوان **فولتير ضد اليهود**، يتضمن كل أفكار فيلسوف التحضر عن الشعب الملعون. وقد استهدف لابرو، طبقًا لـ «روح العصر»، أن يثبت كَم كان العداء لليهود

جزءًا من التراث الثقافي لفرنسا. اعتقل المؤرخ بالطبع في نهاية الاحتلال، ولا يمكن العثور على المجلد اليوم في المكتبات.

ربما يمكن لكراهية إيراسموس ولوثر وفولتير لليهود أن تعلمنا أن عقيدة معاداة اليهود لم تكن قط إرثًا للجموع. تَشارَك العقيدةَ المهيمنة مثقفون لامعون أيضًا أخطأوا بتبنيهم مسلَّمات وقيمًا عُرضت بوصفها يقينًا مطلقًا لا يحتاج إلى أي ذرة من التحقق التاريخي. عرف المفكرون الثلاثة أيضًا، وهم من بين الأجرأ في فجر الحداثة، أنه لكي تتجاسر وتتواقح تجاه العالم القديم عليك أن توضح أولًا وقبل كل شيء أنك لا تحب اليهود.

كانت «الحقيقة الطبيعية» في أوروبا إيراسموس ولوثر وفولتير تقول: إن اليهود ليسوا غرباء فقط؛ وإنما متهمون بشيء ما، وقد ظلت هذه المسلَّمة المتناقلة بسهولة سائدة حتى مجيء الثورة الكبرى؛ بل حتى بعدها كذلك.

ثورة، انعتاق، وقومية

«عدم التسامح الديني على استعداد لقبول حقيقة الدين الذي نؤمن به فقط (...) نظرًا لأن الحقيقة الدينية واحدة ووحيدة. التسامح المدني، في المقابل، يتيح لكل واحد أن يمارس عقيدته، من غير أن نضطر لتبنيها أو إعاقتها».

الأب جريجور،

«مقالة في التجدد المادي، والأخلاقي والسياسي لليهود»، ١٧٨٧.

في العام التسعين من القرن الثامن عشر درَّس عمانوئيل كانط مَساقَه الدراسي الشهير عن الأنثروبولوجيا، الذي نُشر في كتاب عام ١٧٩٧. في واحدة من حواشي الكتاب وَجَدَ كانط أن من الصواب الإشارةَ إلى أن «الفلسطينيين(60) الذين يعيشون بيننا منذ نفيهم، في غالبيتهم الكبيرة على الأقل، قد خلقوا لأنفسهم بسبب ميلهم إلى الإقراض بالربا سُمعة بأنهم محتالون وهم بالقطع يستحقونها».

ظل كانط، الذي يُعد في نظر عديدين أكبر مفكري العصر الحديث، يصف اليهود إبَّان الثورة الفرنسية بأنهم غرباء غير أوفياء أتَوا إلى أوروبا من قارة أخرى. بعد ١٥٠٠ عام كان الكود المركزي في الأسطورة النصرانية بشأن شعب العرق المشتت ما يزال حيًا وفاعلًا. لكن «الحقيقة الطبيعية» طويلة الأمد والممتدة من أوغسطين وحتى كانط، أوشك أن يصيبها التصدع على يد شخصين أقل «ذكاءً» من هذين المثقفَين المذهلين.

في التوقيت نفسه بالضبط تقريبًا الذي ألقى فيه كانط محاضراته المتعمقة، تحدث مفوض، ما يزال مجهولًا، في الجمعية التأسيسية في باريس قائلًا: «حكَوا لكم عن اليهود أشياء مُبالَغًا فيها للغاية، ومتناقضة في كثير من الأحيان مع التاريخ. كيف يمكن أن ننسب إليهم الاضطهادات التي لحقت بشعوب مختلفة فيما كانوا هم ضحاياها؟ (...) ينسبون إليهم خطايا، وآراءً فاسدة، وروح الطائفة (...) لكن ألا يجب أن نعزو كل هذا لعدم عدالتنا نحن تحديدًا؟ لقد تركنا لهم، بعد أن سُلبت كرامتهم وكلُّ تقدير عام، مجالاتِ تحقيق الأرباح فقط». كان اسم هذا المفوض مكسيمليان روبسبير، وقد أسهم إسهامًا فاعلًا في نقاشات الجمعية التأسيسية حول مستقبل اليهود في فرنسا الحديثة.

كان روبسبير، كما هو معروف، من أتباع جان جاك روسو، أحد المفكرين المعدودين في القرن الثامن عشر ممن لم يصابوا بداء كراهية اليهود. كان هناك رسلٌ عديدون أيدوه -من بينهم بالطبع الأب أنري جريجوار اليعاقبي- وكان هناك آخرون، ليبراليون مترددون، شأنهم كشأن الليبراليين (ربما باستثناء أونورا ميرابو) رأوا أن اليعاقبة متطرفون للغاية في مطلبهم بشأن المساواة السياسية والمدنية العامة. لقد عارضوا منح اليهود حقوق المواطنة الكاملة؛ بزعم أن أولئك الذين «أتوا من بعيد» هم شعب أجنبي؛ ومن ثم سيشكلون دائمًا أمة بداخل أمة. لكن في النهاية، في سبتمبر/أيلول ١٧٩١، انتصر الديمقراطيون الـ «متطرفون»، وأقر القانون الذي منح كل اليهود الذين يعيشون في الأراضي الفرنسية حقوقًا متساوية وكاملة.

على امتداد القرن التاسع عشر ستسير كل الدول الغربية على خطى فرنسا. ستكون هولندا، وبلجيكا، واليونان، وكندا من أوائل الدول ثم الولايات المتحدة في أعقابها. في بريطانيا سيكون التحول أكثر بطئًا وتدرجًا، وإن كان دؤوبًا. في بروسيا جرى إقرار المساواة في ١٨٦٦، وفي إمبراطورية النمسا-المجر في عام ١٨٦٧، وفي إيطاليا مع الوحدة الوطنية فقط في عام ١٨٧٠، وفي سويسرا استكمل التشريع في عام ١٨٧٤. ثم توقف تقدم قوانين المساواة عند حدود أوروبا الشرقية؛ وفي الإمبراطورية الروسية، حيث أقامت الأغلبية المطلقة من اليهود في ذلك الوقت، كان يتعين انتظار الحصول على المواطنة المتساوية بصبر مؤلم حتى ثورة ١٩١٧.

من الصعب أن نقدر بدقة عدد اليهود في العالم في بداية القرن التاسع عشر. تقول تقديرات حذرة إن نحو ٤٠ ألف يهودي عاشوا في فرنسا عشية الثورة (من بين ٢٨ مليونًا). في المقابل، لم يعش في كل أنحاء ألمانيا، التي كانت ما تزال مقسّمة، أكثر من ١٦٠ ألفًا، وفي الإمبراطورية الروسية، بما في ذلك بولندا وليتوانيا، أقام أكثر من مليون ونصف مليون يهودي.

كانت فرنسا الثورية، إذًا، الرائدة في منح المساواة المطلقة لليهود. كان هناك يهود غير راضين عن ذلك، لأنهم خشوا عن حق من أن يُقوّض القانون طوائفهم الدينية وسطوتهم القضائية والروحية على المؤمنين بهم. لكن معظم اليهود تحمسوا للمساواة، وللخروج من الجيتوهات، وللانتقال إلى المدن، التي حُظر عليهم حتى ذلك الوقت الإقامة بها، مثلما تحمسوا بالطبع للاندماج في المجتمع

والاقتصاد والثقافة.

غيّر تطبيق مبدأ المواطنة المتساوية تمامًا صورة تواجد اليهود في أوروبا، كطوائف هامشية أُقصيت عن النقابات والجامعات وأجهزة الحكم وعن الساحة العامة برمتها، وهكذا اندفع اليهود نحو مراكز النشاط الاقتصادي والثقافي، وتخلّوا عن ملابسهم التقليدية وعن عاداتهم المتوارثة منذ قرون، ولم يصبحوا وحسب جزءًا لا يتجزأ من الحداثة وإنما أصبحوا في عِداد روادها الأكثر ديناميكية أيضًا. أدى تحطيم محظورات عديدة خنقتهم حتى ذلك الوقت إلى حالة زخم لدى المنبوذين في السابق، الذين حققوا إنجازات استثنائية في مجالات متنوعة. كان يخيل لعديدين أنّ تدنّي وضع الكنيسة ومنحَ المواطنة المتساوية سيؤديان إلى انخفاض منطقي في كراهية اليهود وفي إذلالهم على المستوى المؤسسي والشعبي.

من دمشق إلى بولونيا

صحيح أن معاداة اليهود تغيرت في أوروبا الغربية، وربما تراجعت حتى، لكنها لم تختفِ تمامًا. وبطبيعة الحال لا نعلم ماذا كان شعور الجماهير وفيم فكروا؛ ذلك أنهم لم يتركوا شهادات تقريبًا عن ذلك؛ اللهم إلا هبّات احتجاجية أو تدوين حقائق إحصائية. لم يكن التعليم الإلزامي قد طُبق بعد، وقليلون هم من قرأوا الصحف أو الكتب. لكن نظرًا لأن الأغلبية كانت من المؤمنين، فربما نستطيع الحصول على فكرة ما عن علاقة عموم الناس باليهود استنادًا إلى قضيتين أثارتا أوروبا في ذلك الوقت، وقد تَصدَّرهما اليهود:

تتعلق قضية دمشق التي جرت أحداثها عام ١٨٤٠ بمقتل راهب نصراني يحمل الجنسية الفرنسية وخادمه المحلي. اعتُقل ١٣ يهوديًا على الفور من سكان المدينة. اتهمهم مسؤولو الكنيسة الأرثوذكسية المحلية بأنهم قتلوا الراهب لأسباب تتعلق بالطقوس الدينية: كان القتلة في حاجة إلى دم شخص نصراني من أجل صُنع فطائر (عيد) الفصح. أيَّد القنصل الفرنسي في دمشق، التي كانت تحكمها مصر في ذلك الوقت، الاتهامات ودعَّم مسؤولي الكنيسة بحماس. عُذب المعتقلون اليهود بغلظة حتى مات اثنان منهم تحت التعذيب، ونظرًا لأن رعايا نمساويين كانوا ضمن المتهمين، فقد ضغطت النمسا - المجر من أجل إلغاء الاتهامات ونجحت في إطلاق

سراح المعتقلين.

اعتبر رئيس الحكومة الفرنسية، أدولف تاير، ذلك فعلًا معاديًا لفرنسا ومنح القنصل الفرنسي كامل الدعم والثقة. تجندت الصحافة المحافِظة والكاثوليكية والموالية للحكومة في باريس بقَضُّها وقَضِيضها لدعم فِرية الدم الكارهة لليهود، وخارج فرنسا فقط، خاصة في بريطانيا والنمسا، عارض الإعلام المكتوب الاعتقالات والاتهامات المضحكة.

القضية الثانية تُسمَّى قضية مورطارا. وُلد إدجاردو مورطارا في ١٨٥١ لأسرة يهودية في بولونيا، التي كانت ما تزال بلدة بابوية في ذلك الوقت. وفي إثر مرض أصابه وهو في الثانية من العمر قررت الخادمة النصرانية تعميده(61) من أجل إنقاذه. حين علمت شرطة الفاتيكان بالأمر، قامت بانتزاعه بالقوة من والديه حتى ينشأ نصرانيًا. انتشرت قضية الخطف في أوروبا وأثارت موجات عديدة من الاحتجاج، سواءً من جانب شخصيات ليبرالية أم من جانب بعض الساسة، لكن البابا بيوس التاسع رفض إعادة الطفل إلى أسرته، فنشأ راهبًا ومبشِّرًا حتى وفاته.

أعادت القضيتان إلى أذهان العديد من اليهود ماضيًا غير بعيد، وأدت العاصفتان إلى إقامة تنظيمات يهودية دولية للمرة الأولى. لكن هذه التنظيمات لم تنتقص ولو قليلًا من الوطنية والولاء الآخذَينِ في الازدياد لدى اليهود لأوطانهم الجديدة، وكانت هذه الأوطان في القرن التاسع عشر في مرحلة بناء متسارع. كان إدماج اليهود في الوعي القومي في عصرهم ناجزًا. لقد أصبح اليهود مع ملايين المواطنين الآخرين، فرنسيين جدًا، وبريطانيين جدًا، وألمانيين جدًا، لكن ليسوا بولنديين، أو روسًا أو أوكرانيين بالطبع.

كراهية اليهود وبناء القومية

تزامن التراجع النسبي للكنيسة مع صعود القومية الحديثة؛ صحيح أن الدولة القومية لم تستبدل الكنيسة، وأنها تحالفت معها أحيانا وناهضتها أحيانا أخرى؛ لكن الكنيسة أخذت تحتل وضعًا مهيمنًا أكثر فأكثر في سياسة الهويات الجديدة.

كان كل تكتل قومي مختلفًا عن نظيره، وبقدر عدد القوميات التي نشأت في القرنين التاسع عشر والعشرين كان عدد نسخ الهياكل والمبادئ التي وجهتها

وتشكلت تحت سيادتها. تختلف القومية البريطانية (والأنجلو سكسونية بعامة) عن القومية الفرنسية، التي تختلف هي أيضًا عن القومية الألمانية. وإذا وُجدت أيضًا في كل قومية رغبة عارمة في التوحد الثقافي واللغوي، فإن درجات التوحد كانت مختلفة في الدول المختلفة، ومثلها مبادئ التوحد أو الإقصاء.

على سبيل المثال، إذا كان توحيد بريطانيا قوميًا قد أتاح تعددية ثقافية معينة بالنسبة للفالسيين والأسكوتلنديين، فإن هذا النموذج لم يكن قائمًا في صياغة القومية الفرنسية. لم تترك الدولة القومية الفرنسية مساحة ولو ضئيلة من الحكم الذاتي لكل من مقاطعتي برتان وبروفانس، وسحقت الآلة الثقافية - اللغوية بقايا التفرد المحلية. لكن هاتين الحالتين القوميتين على جانبَي القناة اتسمتا بموقف سياسي شامل. لقد كان الاستيعاب عامًا نسبيًا وإن لم يكن بشكل دؤوب ولم يشمل كل مرحلة من مراحل تقدم القومية.

وفي مقابل ذلك وفي ألمانيا مثلًا كان شكل الانتماء إلى الأمة – الانتماء الذي بدأ يتشكل في القرن التاسع عشر- مختلفًا؛ إذ إنه لم يستطع التبلور حول كنيسة واحدة أو تحت ملكية مركزية واحدة كما هو الحال في بريطانيا وفرنسا، ومن ثم فقد كانت بنيةُ الاستعلاء العرقي المتوهَّم والحصري مهمة للغاية في تطور الجماعة القومية بها. وفي بقية دول أوروبا الشرقية أيضًا أدى التأرجح بين المبادئ المدنية والاستعلاء العرقي إلى ترجيح الكفة لصالح توصيفات عرقية - دينية أكثر انغلاقًا من العرقيات السياسية المنفتحة.

ولقد حددت طبيعة الثقافات القومية ومبادئها الأساسية علاقتهما باليهود أيضًا بقدر كبير. من المفهوم أنه قد طرأت على امتداد القرنين التاسع عشر والعشرين تغييرات عديدة سواءً في طبيعة الثقافات القومية أم في العلاقة تجاه اليهود بداخلها، ومن شأن كل تعميم أن يبعدنا عن تعقيدات الموضوع؛ ومع ذلك نحن في حاجة إلى خطوط عريضة معينة كي لا نقع في فخ «العداء الأزلي للسامية» المتماثل في كل مكان وزمان، الذي هو سمة بشرية في واقع الأمر.

كان العداء لليهود موجودًا في إنجلترا، ثم بعد ذلك في بريطانيا؛ لقد سبق وأشرنا إلى شيكسبير في هذا الموضوع، وكان بإمكاننا إضافة المزيد من الشهادات الأدبية العديدة التي تمتد من جفري تشوسر وإدموند باراك وحتى تشارلز ديكنز

وت. إس. إليوت، لكن الأفكار الثاقبة التي تُصنّف البشر طبقًا للعرق أو الصحافة اللاذعة والعدوانية المعادية لليهود لم تزدهر في الجزيرة البريطانية كما في الأنحاء المختلفة من القارة الأوروبية. وعلى الرغم من أن داروين كان بريطانيًا، فإن تطبيق الداروينية فيما يتعلق باليهود كان هامشيًا نسبيًا إذا قارنّا هذا الاستعمال الأيديولوجي في تأكيد تمييز السكان المحليين في المستعمرات البريطانية.

يمكن لـ يوستن ستيوارت تشامبرلاين أن يمثل في هذا السياق نموذجًا جيدًا؛ لقد نشر هذا الأديب البريطاني كتابه المعروف، الذي يصنف البشر طبقًا للعرق، **أسس القرن التاسع عشر** للمرة الأولى باللغة الألمانية، اللغةِ التي وجد فيها جمهورَ القراء الأكثر حماسًا لأفكاره؛ إذ لم يكن تقديسه لـ «العرق الآري» والاحتقار العميق الذي أكنّه لـ «العرق اليهودي» على هوى معظم الجمهور في بلاده.

وفي ألمانيا، كما ذكرنا سابقًا، بدأ يزدهر في القرن التاسع عشر عداء من نوع آخر لليهود؛ لقد أدت حقيقة أنه كان من بين المتحدثين باللهجات الألمانية بروتستانتيون وكاثوليكيون على حد سواء، وأن الانقسام السياسي حتى عام ١٨٧٠ حال دون الحنين إلى ماضٍ رسمي متجانس ومَجيد، كما قلنا سابقًا - أدى ذلك إلى تطلعات قومية تستند إلى أصل «متجانس» متوهم أكثر مما تستند إلى حاضر سياسي-ثقافي. لم تكن القومية المستعلية عِرقيًا بعدُ إثنو بيولوجية، لكنّ تعبيراتِ «فولكيشية»(62) أصبحت شعبية في الأدب الألماني، وسنجد لدى الفيلسوف المهم يوهان جوتليب فيخته، قبل وبعد هزيمة بروسيا أمام نابوليون، توصيفات ماهِيَويّة لـ «الفولك» (الشعب) الألماني؛ لذا فقد نصح اليهود الذين «يشكلون دولة داخل الدولة» بالهجرة إلى فلسطينا.

دلّت الأحداث العنيفة المعروفة باسم الـ «هيب هيب»(63) التي جرت عام ١٨١٩ على أن جزءًا من الجماهير في أنحاء الكونفدرالية الألمانية رفض رفضًا قاطعًا منح اليهود حقوقًا متساوية، وظل على عدائه العنيف تجاه اليهود. لم يَخلِ الأمر، ولو قليلًا، دونَ تطوُّرِ تطلُّعِ اليهود من المتحدثين بالألمانية إلى الاندماج في محيطهم الثقافي-الاجتماعي. حاول الشاعر هاينريش هاينه، الذي كان بمفاهيم عديدة أكثر ألمانيّةً من ألمان عديدين بالنظر إلى إجادته للغة والثقافة القومية، عبثًا كسر حاجز الهوية الألمانية الـ «أصيلة» حين قرر أن يتنصَّر. لكنه فشل في محاولته وقرر أن

ينتقل إلى فرنسا منذ ١٨٣١.

في فرنسا، أول دولة تمنح اليهود حقوقًا متساوية، كان من المفترض أن يكون الوضع مختلفًا تمامًا. وقد بدا بالفعل أن الانعتاق حظي بنجاح تام، بل ومتسارع أكثر مما في بريطانيا. اندمج اليهود سريعًا في الحياة العامة، وشملتهم هم أيضًا على الأرجح عملية البناء الكبرى للقومية الفرنسية. ومن ثم كان بوسع أدولف كريميه اليهودي أن يُعيَّن وزيرًا للعدل منذ الجمهورية الثانية في ١٨٤٨. لذا كانت مُستغرَبةً ملاحظةُ مؤرخ العداء للسامية ليؤون بولياكوف، القائلة: إنه قد سُكِبَ في فرنسا في نهاية الأمر حبرٌ ضد اليهود أكثر مما في أماكن أخرى.

هل كانت هذه هي الـ «رواسب» الثقيلة جدًا التي ظلت موجودة في التراث الكنسي الكاثوليكي؟ هل كان نجاح جزء من اليهود عبر تحركهم الحثيث في المجتمع والاقتصاد الفرنسيين هو ما أثار الغيرة؟ ولعله كان الاتجاه أيضًا لربط الفرنسيين بـ «أصلهم» الغاليّ - نسبة إلى بلاد الغال - الذي أبعد اليهود قليلًا عن القصة القومية التي بُنيت على وجه السرعة للخلف وإلى الأمام؟ كان من الممكن دمج البرتونيين والبروفانسيين والنورمانديين في ماضٍ غاليّ متوهَّم واعتبارُهم شركاءَ كاملين في مصير تاريخي مشترك وطويل الأمد. لكن هل كان من الممكن اعتبار أولئك الذين «أتوا من فلسطينا» أيضًا (أي: اليهود) من ذرية الغاليين؟

كانت الطبيعة الشاملة المنفتحة للتصور القومي الفرنسي أكثر قوة من الأسطورة الغالية، واستطاع تلاميذ من أصل يهودي ترديد «آباؤنا الغاليُون» لاحقًا في فصولهم الدراسية دون أن يرى معظم معلميهم في ذلك نسبًا غير شرعي (من الصعب تخيُّل أنه كان يمكن لتلاميذ من أصل يهودي في ألمانيا لاحقًا ترديد الجملة التي تقول «آباؤنا التفتونيون») (64).

لكن القومية اليعاقبية تحديدًا، التي حسمت بشكل قاطع وجوب اعتبارهم أبناء الشعب الفرنسي، طالبتهم أيضًا بقدر من التجانس الثقافي الذي كان من المتعذَّر دائمًا تحقيقُه بالمعدل «المرغوب». وبالضبط مثلما أن كاثوليكيين عديدين سابقين لم يتخلَّوا عن ممارسات ثقافية معينة مع تحولهم إلى جمهوريين، فإن عديدًا من اليهود ممن بدأوا في الاندماج في الثقافة القومية المتشكلة لم يكفُّوا عن حفظ عادات تراثية عمرها مئات السنين.

إن حقيقة أن الآخَرِيَّة اليهودية «توارت» خلف ملابس عصرية وضعت اليهود موضع ريبة أكبر. احتفل اليهودي المتعَلمِن بالأعياد اليهودية، التي احتفل آباؤه بها عن إيمان، منذ ذلك الحين بسبب تراث ممتد من الإذلال، وبذا لم يساعد جيرانه خاصة على اعتباره فرنسيًا عاديًا. دل التوجيه السلوكي «كن يهوديًا في بيتك وإنسانًا خارجه»(65)، الذي شاع بين يهود أصبحوا بريطانيين، وألمانيين، أو فرنسيين، على الازدواج القيمي في عمليات اندماج اليهود في الحداثة. ستسهم هذه الازدواجية بنصيبها في كراهية اليهود التي ستصاحب استمرار إضفاء الصبغة القومية على الجموع في فرنسا وأوروبا.

باستثناء ذلك، ومن أجل الحفاظ على العداء تجاه اليهود، أسهمت حقيقة أن أوروبا أيضًا، التي باتت قومية أكثر فأكثر، أصبحت في الوقت نفسه أكثر رأسمالية أيضًا. وحيث إن بعض الأسر اليهودية، قلة قليلة من يهود أوروبا، برزت في هذا التنافس الكبير في تركيز رؤوس الأموال المصرفية الضخمة سواءً في بريطانيا، أم في فرنسا أم في ألمانيا، فإن هذا البروز قد اقترن جيدًا بتراث العداء النصراني للإقراض بالربا منذ عصر ما قبل الحداثة.

كان المؤرخ الكبير جول ميشليه الوريث الروحي الأصيل للغاية للفكر الجمهوري الثوري، الذي أسهم أكثر من كل شيء آخر في اختراع الأمة الفرنسية السخية و«طويلة الأمد» - من عصر الكالتيين وحتى الثورة الكبرى؛ على الرغم من أنه كان معاديًا لبريطانيا أكثر منه معاديًا لليهود فإنه لم يحجم عن أن يقول في كتابه الوطني المختصر **الشعب** في العام ١٨٤٦ بسخرية غير مبطنة: «لليهود، ولا يهم ما يقولون، وطنٌ هو بورصة لندن؛ هم نشطاء في كل مكان لكن جذورهم مغروسة في بلاد الذهب».

كانت الرأسمالية الجديدة مجردة للغاية. يحتاج المتخيَّلُ الثقافي إلى مواد ناقلة ملموسة لم تنتمِ إلى الأمة بالفعل أو... للطبقات الشعبية.

اليهود بين الرأسمالية والاشتراكية

«قبل قضية درايفوس(66) كان كل الاشتراكيين، أي الشق الأكبر منهم، عنصريين في أساسهم».

ميشيل فوكو،

«يجب حماية المجتمع»،

مساق دراسي في كولاج دي فرانس، ١٩٧٦.

وضَعَ مفكران كبيران الخطوط العريضة الأولى لنقد الرأسمالية المتنامية في أوروبا: روبرت أوين البريطاني وشارل فورييه الفرنسي. كلاهما كان مبدعًا وألمعيًا، وما يزال الكثير من نقدهما وأفكارهما الأخلاقية، خلافًا لتنبؤاتهما، يتردد صداه في واقع الأمر حتى يومنا هذا. لكن إذا كان أوين قد ناهض الأفكار المسبقة فيما يتعلق باليهود وقدم حتى للبرلمان البريطاني في العام ١٨٣٠ عريضة شجاعة من أجل المساواة، تطالب بـ «إنهاء كل أشكال التمييز ضد اليهود بسبب عقيدتهم»، فإن النظرة إلى اليهود كانت مختلفة تمامًا لدى فورييه منذ البداية.

رأى مفكر التجمعات التعاونية، التي أطلق عليها «بالانسترات»، أن اليهود ليسوا أبناء ديانة متفردة وحسب؛ بل هم شعب وقومية بشكل صريح. وقال إن هذا الشعب ليس متحضرًا؛ وإنما ظل شعبًا بطريركيًا مُشبعًا بأشواق، وظل مستواه الأخلاقي منذ العصر القديم متدنيًا. هذا الشعب الحقير، الذي لم يَبلغ أي إنجاز في الفن والعلم، برز منذ الأزل بأعماله الإجرامية. كما كرَّس في كتابه **العالم الصناعي والاجتماعي الجديد**، الصادر عام ١٨٢٩، الذي يمثل لائحة اتهام لاذعة ضد التجارة الحديثة والاحتيال البنيوي في بنيتها، بضع صفحات أيضًا عن اليهود غير الأخلاقيين وغير المنصفين؛ وبحسب قوله، «يتمثل الضرر الأفدح لهذه الأمة في تفانيها للتهريب بشكل حصري، وللإقراض الفاحش بالربا، ولكل أشكال الفساد التجاري (...)».

اكتسب فورييه قُوتَه بالكاد من التجارة ومن إدارة الحسابات، وكره طوال حياته أعماله غير المستقرة. أوصلَته اتصالاته مع التجار، والمصرفيين، والمُقرضين

بالربا إلى استنتاج مَفاده أن العلة الرئيسية للبشرية في بداية القرن التاسع عشر تتمثل في تدوير وتركيز رأس المال في أيدي قلة بوجه خاص. بحسب مذهبه، فإن الاحتيال جزء لا يتجزأ من نشاط المقرضين بالربا الفاحش، وليس من قبيل المصادفة أن اليهود هم الأسوأ بينهم. بالطبع ليس اليهود فقط هم الشعب المحب للتملك والاستغلال؛ الصينيون يشبهونهم، كما يجب أن نعرف كيف نحمي أنفسنا من المسلمين أيضًا.

كل مؤلفات فورييه تقريبًا مشبَعة بملاحظات لاذعة معادية لليهود، تدور دائمًا حول الأعمال غير المشروعة لـ «المختونين». لكنه لم يبدُ يائسًا من هذا الشعب غير المنتِج وغير الاجتماعي (غير اجتماعي لأن أبناءه لا يأكلون طعام الآخرين). يجب إعادة تربية اليهود، وإرغامهم على العمل في أعمال منتجة في الزراعة والصناعة؛ ومن أجل تحقيق هذه الغاية، يجب توزيعهم على القرى لكي يتحولوا إلى فِلاحة الأرض. لكن يجب أن تكون الجرعة محسوبة بعناية: يجب تسكين أسرة يهودية واحدة وسط مئة أسرة من المزارعين والمنتجين الفرنسيين العاديين.

بمرور السنين يَئِس فورييه من إصلاح أخلاقيات اليهود، واقترح مرارًا وتكرارًا إغلاق أبواب فرنسا في وجوههم إلى الأبد. لكن هذا المفكر وجد، في كتابه الأخير تحديدًا **الصناعة الكاذبة** من العام ١٨٣٦ حلًا راديكاليًا جديدًا للمشكلة اليهودية. أصبح فورييه، الذي كان ربما أول اشتراكي معادٍ لليهود في القرن التاسع عشر، أولَ صهيوني في التاريخ أيضًا في أخريات أيامه. صحيح أن كلمة «صهيونية»(67) لم تكن قد اختُرعت بعد، وطُرحت أفكارٌ منذ القرن السابع عشر لإعادة اليهود إلى الأرض المقدسة(68)؛ لكن الفكرة لم تكن قد صيغت حتى ذلك الوقت بشكل واضح وقاطع للغاية.

آمن فورييه بأن الهجمات على اليهود ستزداد، لذا يتعين عليهم أن يرحلوا من أوروبا وأن يعودوا إلى (أرض آبائهم) في فلسطينا. كان يرى أن البعث القومي المثير للفخر أفضل ألف مرة من صفقات الاحتيال في البورصة، وبه سيتحول شعب التجار التاريخي إلى شعب منتج من الطراز الأول. وما لا يقل أهمية عن ذلك، أن استعمار الأرض الجديدة يمكن أن يتحقق فقط إذا تبنى هذا الشعب فكرة الـ «بالانستر- المستعمرة التعاونية؛ حيث ستنتشر المستعمرات التعاونية اليهودية

المنتجة وستحول الصحراء إلى أرض زراعية. ولكن لإحياء هذه الفكرة الاجتماعية - القومية وتنفيذها يجب إيجاد مليونير يهودي يستثمر في المشروع الرائد.

كان المرشح الأفضل في نظر فورييه هو بالطبع روتشيلد(69)؛ فلقد آمن أول اشتراكي بأن أول مصرفي يهودي سيستجيب للقيام بهذه المهمة؛ لأنه سيصبح بذلك ملك المستوطنين اليهود. هذه المملكة اليهودية الجديدة ستتوصل إلى اتفاق مع المسلمين، وسيعترف العالم كله بالقيمة الإنتاجية لـ «البالانسترات» - المستعمرات التعاونية؛ بذا سيمهد اليهود الطريق لتحرير البشرية كلها من الاستبداد الرهيب للمال.

لم تتعارض «صهيونية» فورييه مع كراهيته لليهود، وإنما أكملتها بقدر ما. صحيح أن فورييه لم يُبد في كتابه الأخير نفوره من اليهود بشكل معلن؛ إذ كان يأمل على ما يبدو في أن يستحسن روتشيلد أو أي متبرع يهودي آخر رؤيته. لكن إقامة مملكة يهودية تعمل بها مستعمرات تعاونية منتجة ستحقق في واقع الأمر هدفًا مزدوجًا: تتخلص فرنسا من يهودها، وفي الوقت نفسه يحظى التعاون الجماعي بموديل تاريخي ناجح.

غريبة هي حقيقة أن تحظى يوتوبيا فورييه بتحقق جزئي لاحقًا فقط بعد قرن من الزمان: صحيح أن روتشيلد لن يصبح ملك اليهود، لكن الحركة الصهيونية ستقيم كيبوتسات (مستعمرات زراعية جماعية تعاونية) تعاونية تُذكّر بقدر ليس بالقليل بالـ «بالانسترات» التي راودت فكر فورييه الثاقب.

بقدر ما كان فكره هامشيًا واحتوى على أشياء غريبة بالنسبة لواقع عصره، فإن أفكاره أثرت كثيرًا من الكُتاب وحتى العسكريين وأرباب الصناعة، كما استوعبت دوائر عديدة رؤاه في مجال التعاونيات في مواجهة التنافسية ونقد اقتصاد رؤوس الأموال ومقترحاتِهِ فيما يتعلق بتحديث الإنتاج الزراعي، مثلما أسهمت كثيرًا في الفكر الاشتراكي الذي بدأ يتسرب إلى الساحة العامة.

حظي عداء فورييه أيضًا لليهود بتقدير واسع، وإن كان بكثير من التحفظ أيضًا. لم يكن كل أنصار فورييه معادين لليهود، وبالطبع لم يكن كل الكارهين لليهود مشايعين لفورييه أو مالوا إلى نقد الرأسمالية. لم يكن المعسكر المحافظ الكبير،

سواءٌ الجناح الكاثوليكي أم الجناح الأكثر علمانية، راضيًا بعدُ عن منح اليهود حقوقًا متساوية.

لكن إذا كان فيكتور كونسيدران، زعيم مدرسة فورييه الفكرية، قد تحفَّظ على كراهية اليهود وأدان صراحة كل عداء للأجانب، وكان مؤيدوه كثيرين، فإن مؤيدًا آخر من مؤيدي فورييه، يُدعى ألفونس توسنال، نشر في عام ١٨٤٥ الكتاب الناجح **اليهود، ملوك العصر: تاريخ الإقطاع المالي.** ومنذ ذلك الحين، في تراث كراهية اليهود، لم يعد أنصار الديانة الموسوية مجرد مُقرضين بالربا ومصرفيين فقط، وإنما هم حكام أوروبا الجدد. وهؤلاء الحكام، في رأي طوسنال، الاشتراكي الكاتب في الشؤون العامة، يمقتون الطبقات الدنيا ويحتقرونها. كان هناك من بين المُقرَّبين لـ طوسنال من أنصار فورييه مَن أكدوا صراحة على الاختلاف العرقي لليهود وتمنَّوا حتى طردهم من فرنسا.

برودون أبو الأناركية

من الصعب اليوم التطرق إلى كلود سان سيمون، خاصة إلى أشياعه من بعده، بوصفهم منتقدين للرأسمالية، ولذا ربما لن يكون مدهشًا أيضًا أنه لم تكن لديهم تقريبًا ميول معادية لليهود، ربما باستثناء بيير ليرو، الذي تحول إلى كاره دؤوب ومنتظم لبني إسرائيل، لكنه أخذ في التنائي في الوقت نفسه عن فلسفة سان سيمون. نجد لدى أوجست بلانكي ملاحظات معدودة معادية لليهود تتشابه تقريبًا مع تصريحاته اللاذعة ضد النصرانية. في المقابل، تمرغ بعض أنصار بلانكي المشهورين، خاصة جوستاف تريدون، لاحقًا في عداء أكثر قرفًا وماهيوية لليهود.

لكن الأمر الأكثر مفاجأة في تاريخ كراهية اليهود لدى اليسار الفرنسي هو حالة بيير جوزيف برودون. في ديسمبر/كانون الأول ١٨٤٧ كتب أبو الأناركية الفرنسية في **يومياته**:

«اليهود... أن تكتب مقالًا ضد هذا العرق، الذي يسمم كل شيء، الذي ينحشر في كل مكان من دون أن ينصهر مع أي شعب آخر. يجب المطالبة بإبعادهم عن فرنسا، باستثناء أولئك المتزوجين من فرنسيين. يجب تصفية كُنسهم، وألا نُبقي لهم أي وظيفة، وأن نستمر في محو طقوسهم الدينية. ليس من قبيل المصادفة أن سمَّاهم النصرانيون قتلة الإله. اليهودي عدو الجنس البشري. يجب إعادة إرسال

هذا العرق إلى آسيا أو إبادته. هاينريخ هاينه(70)، وإلياكيم ويل(71) وآخرون هم جواسيس سريون؛ وروتشيلد(72)، وكرميا(73)، وماركس(74)، وفولد هم أناس أشرار، غضوبون، متعصبون، ساخطون نكرههم».

ليس هذا هو المكان الوحيد الذي تطاول فيه برودون على اليهود. المناسبات التي فعل فيها ذلك ليست عديدة، لكن الصياغة السابقة هذه إحدى الصياغات الأشد قسوة. لم ينشر برودون بالطبع هذا الكلام على الملأ؛ بل لقد أبدى في العلن اعتدالًا وانضباطًا أكثر.

لم يكن السخط العارم للمفكر عفويًا. قبل بضعة أشهر من تدوينه كلمات الكراهية هذه في يومياته، نشر كارل ماركس باللغة الفرنسية كتابه: **فقر الفلسفة**، الذي قتل فيه كل المبادئ التي استند إليها برودون في نقده لاقتصاد السوق. حتى ذلك الوقت اعتبر برودون الثوري الذي رحل عن ألمانيا صديقًا، لكن نقده الحاد لكتابه صعقه. فكتب في يومياته: «ماركس هو باسور الاشتراكية»، ويبدو أن الكلمات التي لا تطاق المذكورة أعلاه ضد عموم اليهود ترتبط بالإهانة اللاذعة التي تلقاها من «أحد اليهود الألمان».

لم تغير حقيقة أن ماركس، وهو ابن أسرة [يهودية] تنصّرت، وقد نفر من اليهود، دون أن يعرف شيئًا عن الدين اليهودي، الكثير من نظرة برودون لهم.، من نظرة برودون لليهود (مثلما لدى ميخائيل باكونين بالضبط، أبي الأناركية الروسية، الذي جننته هو أيضًا غطرسة ماركس «اليهودي»، وزادت من عدائه غير المنطقي لكل الـ «مختونين» فوق ما يُتصور)

كانت نظرة برودون العلنية تجاه المسألة اليهودية كما قلنا سابقًا أكثر «اعتدالًا»؛ فقد درس العبرية لسنوات عديدة، وكان ينوي كتابة مؤلف تاريخي كبير عن «اليهودية»، وهو مشروع لم يستطع إنجازه. كان واثقًا دائمًا أن اليهود شعبٌ أو عرقٌ سعى ووصل إلى القارة الأوروبية من فلسطينا البعيدة، وأن النفي القسري لم يكن هو ما استأصل هذا الشعب من أرضه، وإنما غريزة التجارة المتنامية تحديدًا؛ ارتحل اليهود بسبب ميلهم إلى التطفل وإلى شهوة المال. كان يحق لهم طبقًا لتوراتهم ابتزازُ فوائد ربوية فاحشة من النصارى، لكن ليس من أبناء جلدتهم. لقد

عاش اليهود، من عصر يشوع(75) وحتى الثورة الفرنسية، رغم الاضطهادات التي تعرضوا لها، وما يزالون، على حساب آخرين.

بحسب نظريته، فإن ثمة شكًا كبيرًا في أن هذا الشعب قد اخترع التوحيد على الإطلاق؛ لأن اللغة العبرية لا يوجد بها على الإطلاق كلمات مجردة؛ من الأرجح الافتراض بأن التوحيد وُلد بإلهام هندو - أوروبي(76). وبحسب هذه النظرية أيضا هذا العرق العبري ينقصه أيضًا حس سياسي، وتدل عدم رغبته في انبعاث قومي على عدم قدرته حكم نفسه بنفسه. هو في المجمل عرق من السماسرة والوشاة المحبين للشقاق، وللانتقاد وللشجار مع كل العالم.

لكن دعونا لا نخطئ؛ ليس اليهود فقط هم مَن يكرههم برودون؛ ففي عام ١٧٨٩ فتح إعلان حقوق الإنسان، والليبرالية السياسية والاقتصادية التي انتشرت منذ ذلك الوقت، الأبوابَ أمام هجرة منفلتة. ولكن طبقًا لـ برودون أيضا، فإن اليهود وإن سيطروا على البنوك وعلى كل التجارة في فرنسا فإن كتائب من العمال البلجيكيين، والألمان، والإنجليز والسويسريين، كانوا قد دخلوا هم أيضًا فرنسا، واقتلعوا عمالًا فرنسيين من الصناعة والزراعة. وقد كان الإنجليز - بعد اليهود - الأكثر سيطرة من بين الأجانب، كانوا هم من استحوذ على ثروات فرنسا ولوَّث عرقها.

لم يعارض برودون - مثل معادين آخرين لليهود من اليسار- رغم كل انتقاداته ونوبات سخطه، انعتاقَ اليهود ولم يؤيد بأي حال من الأحوال إلغاء المساواة في الحقوق (بالنظر إلى معارضته تحرير السود، على سبيل المثال). ولم يقترح في العلن قط، مثل فورييه، طردهم من فرنسا أو إرسالهم إلى فلسطينا.

وماذا عن الأناركيين؟

هناك بين أنصار برودون من الأناركيين كارهون بارزون لليهود، ولكن هناك من بينهم أيضًا من هبُّوا للدفاع عنهم بكل قواهم لاحقًا. سيكون إميل فوجيه، وإليزا ريكلو، وسبستيان فور في نهاية القرن التاسع عشر من أنصار درايفوس منذ اللحظة الأولى. لكن الأناركي الأشهر في سياق قضية درايفوس كان برنارد لازار، الذي لولاه لكان ثمة شك في حدوث هذا الحدث. اتخذ أناركي ثانويّ - تحديدًا من

ذرية برودون الروحية - موقفًا شجاعًا واستثنائيًا أسهم في حدوث تحول مهم، سواءً في تاريخ الجمهورية الفرنسية أم في مستقبل جزء من اليهود.

لكن لكي نفهم الملابسات الخاصة باندلاع العاصفة حول ألفريد درايفوس يجب أن نتوقف أولًا عند ثلاث ظواهر سبقت المناخ الوخيم المعادي لليهود في نهاية القرن.

تصنيف عرقي، دَمَقرطة وهجرة

«بيد أن هناك عرقًا وآخر. هناك أعراق طبيعية تحددها سمات جسدية أولية، وأعراق تقوم على تآلف أسس عرقية متنوعة. يستطيع البروسيون - وليس الألمان - الادعاء بأنهم ينتمون إلى النوع الأول، أما نحن فننتمي إلى النوع الثاني».

جان جيرودو(77)،

صلاحيات كاملة، ١٩٣٩

كان مصطلح «عرق» موجودًا منذ مئات السنين قبل أن تظهر الأعراق في الخطاب «العلمي» في أواخر القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر. وكان نقاء الدم أيضًا موضوعًا قديمًا، انتشر أيام محاكم التفتيش في إسبانيا مثلما ذُكر سابقًا. لكن، المنافسة الرأسمالية الفعلية، التي واكبت وغذت عالم الفكر بأكمله بفضل وجودها في أثناء نشأتها في النصف الأول من القرن التاسع عشر – هذه المنافسة «حفزت» وشكلت أساس اكتشاف المنافسة بين الأنواع والانتقاء الطبيعي في نظرية دارون الثورية.

وسرعان ما استنسخ واقع عالم الحيوان فيما يخص بقاء الأعراق القوية إلى مجالات «علمية» أخرى، من قبيل الداروينية الاجتماعية، التي رأت حرب الكل ضد الكل، الأفراد والطبقات، ليس في عالم الحيوان وحده ولكن في التاريخ الإنساني كله.

في الوقت نفسه، بدأ فرع أكثر انحرافًا في إنتاج خطاب جديد أيضًا حول الاختلافات والتنافس بين جماعات بشرية، وكانت هذه المرة هي «الأعراق» البشرية. بمعنى أنه إذا كانت الرأسمالية الاقتصادية- الاجتماعية هي أساس نشوء المفاهيم الأساسية في علم دارسة الحيوان، فإن إنجازات علم دارسة الحيوان طُبقت فورَ أن «عادت» إلى توصيف الجماعات البشرية «الطبيعية» والصراع بينها.

ظهرت عدة مؤلفات حول الأعراق البشرية منذ بداية القرن التاسع عشر، لم تَلفت الانتباه في البداية. لكن من بين المؤلفات الجديدة بدأت تبرز **مقالة التفاوت بين الأعراق البشرية** للكونت آرثر دي جوبينو(78)، التي نُشرت عام ١٨٥٤. كان هذا

المؤلف - الذي لم يكن من النبلاء حقًا ولا مثقفًا كبيرًا - أصيلًا، ويعرف كيف يكتب، بطريقة سلسة وجذابة، مزيجًا من آراء سابقة مع صيغ علمية. ولقد حقق كتابه أصداءً واسعة في ألمانيا على الفور.

صحيح أن الأعراق الثلاثة، التي وردت في كتابه، الأبيض، والأصفر والأسود، لم تعد أعراقًا نقية، وهو أمر أسِف عليه المؤلف، لكن لا تزال هناك تراتبية واضحة وحادة فيما بينها، حيث لا تتساوى في جودتها ولا في مستواها الفكري: الدم هو المصدر الرئيسي للاختلاف بين الأعراق، والعرق الأبيض جميل وذكي وقوي، والآريون هم نخبة هذا العرق، والسود، في المقابل، أدنى فكريًا، وذوو البشرة الصفراء أعلى منهم بقليل. هناك أعراق فرعية كثيرة أيضًا، بينها أيضًا درجات أفضلية أضفاها عليها الذوق «الأرستقراطي» للمؤلف.

كان جوبينو ماديًا بيولوجيًا وعنصريًا، لكنه لم يكن معاديًا لليهود بشكل خاص. وفق رأيه، كان نسل إبراهيم في وقت التوراة عرقًا نقيًا، لكنه اختلط كثيرًا لسوء الحظ مع شعوب أدنى مكانة وذوي بشرة غامقة، ومن هنا تشكّل مظهره الخاص حتى اليوم، ومن الأفضل طبعًا ألا يخالط العرقَ الأوروبي الذي لم يعد كذلك نقيًا تمامًا كما يقال؛ ومن هنا يُحدق به خطر الانحطاط.

في عام ١٨٥٥ - وهي السنة ذاتها التي ظهر فيها الجزء الثاني من كتاب جوبينو-نُشر أيضًا كتاب إرنست رينان(79) الشاب **التاريخ العام ونظم مقارنة اللغات السامية**. كان رينان، على العكس من جوبينو، نحويًا مدققًا وجادًا؛ ولهذا رفض أشكال التمييز البيولوجي لـ جوبينو؛ لكنّ بُعدًا هيراركيًا/ تراتبيًا ماهيويًا أيضًا أضيف منذ ذلك الحين إلى الاختلافات القائمة بين اللغات السامية واللغات الهندو أوروبية، وكان واضحًا لقراء رينان أن اللغات السامية أدنى بمفاهيم معينة مقارَنة باللغات الأوروبية. كان من الواضح أن علم الحيوان الجديد يحذو حذو علم فقه اللغة، ويدفعه أيضًا إلى تأكيد تفوق الرجل الأبيض.

لم يكن رينان أيضًا معاديًا لليهود، ولاحقًا كرّس كامل قواه الفكرية لتفكيك النقد السائد حول كون اليهود عرقًا، وانبرى للدفاع السياسي عن يهود أوروبا الشرقية. بيد أن مؤلفه النحوي المبكر ساعد في تطويق افتراضات أساسية لدى دوائر نخبوية جادة حول وجود أعراق بشرية. لا شك أن رينان أسهم بشكل كبير في

ظهور الأيدولوجيات التي تصنف الأعراق في أوساط النُخب الفكرية؛ وإن كان قد ندم على ذلك لاحقًا.

وصل «ابتذال العرق» إلى الذروة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ إذ صار مضغة في أفواه الجميع، تفوه متعلمون وغوغاء جهلة على حد سواء بعبارات، عن غير علم كاف أحيانًا، عن وجود أعراق في الوجود البشري. يمكن القول بأن العنصرية غُدَت أمرًا بديهيًا، وعقيدة «علمية» وشعبية على حد سواء، وبقيت كذلك حتى نهاية الحرب العالمية الثانية على أقل تقدير.

صحيح أن هذا الخطاب المهيمن سينكسر لاحقًا بشكل شبه كامل بعد مائة عام حين ينهزم النازيون؛ لكن إسهامه في إخراج اليهود من العالم الأوروبي وتمهيده الطريق لإمكانية وقوع الاضطهادات الكبرى في حد ذاتها، خاصة اللامبالاة الصادمة التي رافقتها ليس موضعًا للشك. لكن من الأفضل التحفظ قليلًا هنا؛ فإذا كان التصنيف العرقي المبتذل في ألمانيا قد أصبح نوعًا من الشفرة العادية في كل حديث صالون روتيني حول وحدة الأمة، فإن استخدام مصطلح «عرق» في فرنسا في الأيديولوجيا الشوفينية الفرنسية تلقَّى ما يشبه هزة «تحت أرضية» استثنائية.

أدَّت هزيمة فرنسا في حرب عام ١٨٧٠ وضم الألزاس واللورين إلى الرايخ الألماني إلى حدوث صدع وتخبطات في كل محاولة ممنهجة لتصنيف الشعب «الغالي»(80) تصنيفًا عرقيًا. طالب كل قومي فرنسي شوفيني محترم بالأراضي الفرنسية التي تم ضمها، لكنه لم يستطع فعل ذلك على أساس «عرقي»، بسبب الأصل «العرقي - اللغوي» للألزاس؛ لذلك بقي للإنسان «الوطني» أن يطالب بها على أساس ديني- تقليدي أو على أساس برنامج طوعي ديمقراطي. كان هذا أحد الأسباب - إضافة إلى إرث اليعاقبة السياسي طويلِ الأمد - التي تقف وراء عدم ربط الشعب الفرنسي بشكل محكم بمبدأ عرق ثابت ومتواصل.

في فرنسا، على عكس ألمانيا، سيستمرون في تصنيف اليهود عرقيًا، لكنهم، في المقابل، سيصنفون الشعب الفرنسي نفسه عرقيًا بشكل أقل. ستظهر أندية جوبينو في أنحاء ألمانيا، لكن ليس في فرنسا. في بلاد الغالسيتم تهميش عالِم الأنثروبولوجيا الفرنسي، جورج فاتشي دي لابوج، الذي أشاد بالعرق الآري وفي المقابل سيُمتدح في الولايات المتحدة الأمريكية وفي ألمانيا.

تدفق الجماهير على مراكز الاقتراع

لكن إذا كانت العنصرية النظرية قد حظيت بنجاح أقل نسبيًا في فرنسا، فقد شرعت المعاداة السياسية لليهود في التعمق على أعتاب نهاية القرن التاسع عشر في مقابل ذلك بصورة لا تقل عما كان عليه الحال في ألمانيا، وبصورة أكثر حدة حتى في مجالات بعينها. كان أحد العوامل المحفزة لتحويل كراهية اليهود إلى صَرعة في دوائر اليسار واليمين هو عملية التحول إلى الديمقراطية التي مر بها العالم الغرب- أوروبي. وقد أدى منح حق الاقتراع العام، وبخاصة تحت ضغط الطبقة الرابعة الصاعدة، إلى تشكيل أحزاب سياسية جماهيرية، ومن ثم إلى تزايد أهمية الدعاية الانتخابية. من المعروف، أن الطريقة المثلى لحشد الجماهير تتم من خلال خلقٍ مستمر لأعداء متوهمين بنحو كبير أو أقل. كان يمكن أن يكون العدو إنجليزيًا وبالطبع ألمانيًا، وكان يمكن أن يكون طبقيًا أو مواطنًا وحشيًا في المستعمرات اعتاد قطع الرؤوس. وكان من الممكن دائمًا أيضًا أن يكون اليهوديّ المناوِب، الذي سيطر على العالم مع صعود رأس المال.

سرعان ما ظهر التحريض ضد اليهود في البرامج الحزبية. كان اليمين الكاثوليكي سبّاقًا في عدائه التقليدي لقتلة يسوع، وتبعته أحزاب الوسط واليسار في إطار المنافسة الشديدة على جمهور الناخبين. كما غذت الفضائح المالية الخيال الشعبي الذي شكّلته صحافة كرست نفسها لتشويه سمعة شخصيات عامة بصورة ممنهجة، خاصة من اليهود. وبالفعل وجدنا عددًا غير قليل من ذوي الأصول اليهودية من الوسطاء بين القطاع العام والخدمات المصرفية الخاصة، وقد تناولَتهم عدة تحقيقات صحفية ورسوم كاريكاتورية لاذعة ليست بالقليلة.

في عام ١٨٧٩، نشر صحافي ألماني يدعى ڤيلهلم مار كتاب **انتصار اليهودية على الجرمانية**، الذي أصبح من أكثر الكتب مبيعًا وساعد في جعل مصطلح «معاداة السامية» (الذي لم يستحدثه في الحقيقة) مألوفًا ومقبولًا. كما أسس في العام ذاته «رابطة معاداة السامية» الأولى. وقد جزم في كتابه وفي مقالاته أن هناك صراعًا مريرًا ومستمرًا بين الألمان والعرق السامي لن ينتهي إلا مع إقصاء اليهود عن ألمانيا وإرسالهم إلى فلسطين؛ وأنه لا سبيل غير ذلك. ذاعت منذ ذلك الحين «معاداة السامية» الخاصة بـ مار، وانتشرت في الصحافة وفي الأدب الشعبي،

بوصفها مصطلحًا في البداية يعني معارضة حكم اليهود، وسرعان ما خُلّدت في قاموس مصطلحات العالم الغربي كله بوصفها مصطلحًا يدل على كراهية اليهود. لقد نجحت في تقوية الصورة الذهنية عن اليهودي بوصفه «ساميًا» غريبًا، حتى بين أولئك الذين لم يكونوا معادين لليهود.

في عام ١٨٨٩، أسس صحافي فرنسي نشيط يُدعى إدوارد دريمون «الرابطة القومية الفرنسية لمعاداة السامية». استوعِب المصطلح، الذي عظَّم البُعد الماهيواني والدخيل للوجود اليهودي في فرنسا جيدًا. في عام ١٨٨٦، أي قبل نحو ثلاث سنوات، نشر دريمون كتابه **فرنسا اليهودية**، الذي أصبح أكثر الكتب الناجحة مبيعًا في نهاية القرن التاسع عشر. وسريعًا ما ظهرت كتابات على غراره أقل «نجاحًا» مثل **الجزائر اليهودية**، وروسيا **اليهودية**، و**النمسا اليهودية**، ولاحقًا أيضًا **إنجلترا اليهودية**.

اختلطت في جميع تلك المؤلفات، وفي أخرى كثيرة، الكراهية الدينية التقليدية لليهود بالإرث الاجتماعي-الاقتصادي المعادي لليهودية وبالإنجازات الحديثة لـ «علم» البيولوجيا. من الآن صار واضحًا: أن قتلة الإله القدامى، الذين تحولوا إلى طفيليات الاقتصاد الحديث، ينتمون إلى عرق دخيل وغريب زَحَفَ من أطراف آسيا القريبة، وتسلَّل بدهاء إلى عروق الدم النبيل للعالم الأبيض والمسيحي.

هجرة وعنصرية

كانت الهجرة هي الظاهرة الثالثة التي ميزت السنوات العشرين- الثلاثين الأخيرة من القرن التاسع عشر وساهمت بنصيبها في تشكيل أسس كراهية الجماهير لليهود. أدت التغيرات الاقتصادية السريعة، التي زامنت الأزمات الحادة في مرحلة معينة، والزيادة الديموجرافية السريعة وتحسين منظومة المواصلات - إلى تنقلات سكانية كبيرة. كانت الهجرة من الشرق إلى الغرب في الأساس، من سهول روسيا القاحلة إلى القارة الأمريكية، وكذلك أيضًا من إيطاليا ومن جنوب أوروبا وبالطبع من الصين ومن جنوب شرق آسيا إلى الولايات المتحدة.

كانت هجرة شعب البيديش(81) من الإمبراطورية الروسية غربًا غفيرة وهادرة. فقد هاجر إليها، منذ عام ١٨٧٠ وإلى أن أوصدت الولايات المتحدة أبوابها

في عام ١٩٢٤، ما بين ٢ إلى ٢.٥ مليون يهودي. أوقفت الهجرة في أعقاب تشريع عنصري أمريكي ضد مهاجرين غير مرغوب فيهم. لكن قبل ذلك أسهم انتقال المهاجرين ومحاولات استيطانهم بلدان وسط وغرب أوروبا؛ في تصاعد العداء تجاه «اليهودي المرتحل» بشكل كبير.

في الإمبراطورية الروسية وطيلة القرن التاسع عشر، أُلزم غالبية اليهود بالسكن داخل حدود قرى (في مناطق أوكرانيا وبولندا وبلاروسيا/روسيا البيضاء وليتوانيا) في ظل ظروف اقتصادية قاسية وغير مستقرة. تكدس نحو ٤.٥ مليون يهودي في بلدات صغيرة وقرى، ويعيش معظمهم من البيع المتجول، ومن الحرف ومن التجارة المتواضعة (بلغ تعدادهم في تلك المناطق نحو ١٠٪ من إجمالي السكان، الذين عاشوا هم أيضًا في ظل ظروف لا تحتمل). حافظ يهود أوروبا الشرقية - خلافًا ليهود أوروبا الغربية - على لغةٍ وثقافةٍ مميزتين تختلفان عن لغة وثقافة جيرانهم غير اليهود. وقد بدأ أدب وفكر علمانيَان تمامًا بالازدهار في أوساطهم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. أدى تشكل أول بروليتاريا(82) في مناطق بعينها إلى ولادة اشتراكية ييديشية مميزة لاحقًا.

تزايدت الهجرة باتجاه الغرب، التي بدأت في سبعينيات القرن التاسع عشر مثلما ذكر سابقًا، بشكل أكبر مع موجة المذابح التي اندلعت عام ١٨٨١ واستمرت نحو ثلاث سنوات(83). أدى كل من عدم الاستقرار الاقتصادي، ومواعظ الكنيسة الروسية الأرثوذكسية، والتحريض المتعمد من جانب الحكومة الروسية القيصرية وبراعم القومية المحلية، إلى خلق جو من العداء الشديد ضد وجود شعب الييديش الـ«دخيل»؛ مما أدى إلى «الخروج»(84) الكبير باتجاه الغرب. غمرت مئات الآلاف من العائلات اليهودية أوروبا بحثًا عن ظروف معيشية أفضل وأكثر أمانًا. في الثمانينيات، احتشد مهاجرون يهود في الأحياء الفقيرة في برلين، وباريس ولندن في تكدس متزايد.

كان السواد الأعظم من هؤلاء المهاجرين ما يزالون متدينين تقليديين، وأثاروا بسبب لباسهم وعاداتهم ولغتهم موجاتٍ من الصد والنفور ممن حولهم. تجدر الإشارة إلى أن سيل المهاجرين لم يكن يهوديًا فحسب؛ فقد وصلت موجة من المهاجرين الإيطاليين أيضًا إلى جنوب فرنسا وإلى القارة الأمريكية، وقد

أدى العداء تجاه هذه الهجرة إلى حوادث عنيفة. لكن، في الحالة اليهودية كان الاجتناب اليومي للغريب والمختلف مغلفًا سواءً بالتقاليد المسيحية طويلة الأمد أو بالعنصرية النظرية التي تفشت وكانت بمثابة تعزيز «من أعلى».

انتشرت الدعاية المعادية للأجانب سواءً في دوائر اليمين التقليدي، أم في دوائر الوسط الليبرالي واليسار الراديكالي. أبرزت الصحف الشهيرة المعادية لليهود اختلاف المهاجرين من الشرق، ودعت إلى طردهم من الأراضي الألمانية والفرنسية، بل من كل أوروبا.

وبالفعل، اضطر جزء كبير من المهاجرين، على ضوء التحريض المستمر، إلى مواصلة مسيرة المعاناة نحو القارة الأمريكية، خاصة الولايات المتحدة، ونحو الأرجنتين منذ العام ١٩٢٤.

قضية درايفوس وولادة الصهيونية

«إنها جريمة لتسميم (عقول) البسطاء والمستضعفين، ولإثارة مشاعرِ غضبٍ قِوامها عدم التسامح مع التستر وراء المعاداة المقيتة للسامية. إذا لم تبرأ فرنسا العظيمة والليبرالية والداعمة لحقوق الإنسان من هذه الكراهية فإنها ستهلك».

إميل زولا(85)،

«إني أتهم!»، ١٨٩٨.

في عام ١٨٩٠، ذكر الكاتب برنارد لازار(86) -وهو رمزاني(87) وأناركي(88) من أصل يهودي- أنه لا يجب علينا الخلط بين العرق اليهودي- البرتغالي والعرق اليهودي- الألماني. الأول عرق سامي أصيل بينما الثاني عرق هوني (نسبة لقبائل الهون)(89) مقيت. الإسرائيليون البرتغاليون الذين ولدوا في فرنسا طوال القامة ووسيمون، أما اليهود الـ«إشكناز» فقصار القامة ودميمون. «عندما نأخذ شخصًا ما من الطبقات الدنيا في بولندا، أو روسيا، أو جاليتسيا، أو من الجيتوات (الأحياء اليهودية) في ألمانيا، سنكون أمام شخص قذر رث الثياب، ذي سمات كريهة ومنفرة يتحدث لهجة محلية يهودية- ألمانية غريبة.

يضيف تلميذ برودون وباكونين بحماس أن الإسرائيليين الفرنسيين القدامى يجب أن يتجنبوا الغرباء الزاحفين من الشرق، وأن يعملوا بجد على إغلاق أبواب فرنسا في وجوههم. سوف يُنظر إلى المعادين للسامية على أنهم محقون بشكل أكبر، بل ويستحقون التقدير، لو ميزوا بين العرقين. وبذا يتمكن يهودٌ برتغاليون أيضًا من الانضمام إلى المعسكر المتنامي للمعادين للسامية.

إنه برنارد لازار.. مطلع تسعينيات القرن التاسع عشر، إسرائيلي فرنسي، من أصل «برتغالي» بالطبع، يريد أن يَكره جزءًا من اليهود فقط لا العرق كله. ونظرًا لأن كارهي اليهود لم يستجيبوا له واستمروا في التحدث عن اليهود بعبارات عامة، فقد قرر أن يَنذُرَ نفسه للكشف عن أسباب الكراهية الطويلة. في عام ١٨٩٤ نشر بحثه **معاداة السامية، تاريخها وأسبابها**، الذي يُعدُّ أول دراسة منهجية في تاريخ العداء لليهود.

الكتاب ماتع ويحتوي رؤى عديدة مبتكرة إلى جانب التعميمات الفظة أيضًا. الاستنتاج النهائي الذي توصل إليه برنارد لازار هو أنه بما أن «معاداة السامية» ظاهرة عالمية، ومستمرة على الدوام، فإن السبب في حدوثها لا بد وأن يكون اليهود أنفسهم. فهم السبب في الكراهية التي أثاروها تجاه أنفسهم، لأنهم كانوا دائمًا ولا يزالون «غير اجتماعيين»؛ لقد عزلهم حاخاماتهم بقوانينهم الصارمة عن سائر بني البشر. إنهم متعجرفون يعتقدون أنهم شعب مجيد ومختار. ويرّون أنفسهم منفيين عن أرضهم المقدسة، ودائمًا ما حافظوا على سماتٍ شخصية فريدة. قد لا يشكلون عرقًا واحدًا، لكنهم بالتأكيد شعب أجنبي.

لم تدَع هذه العفوية الأناركية لازار ينعم بالراحة ودفعته إلى التغير باستمرار؛ لقد كان أول من انبرى من أجل الدفاع عن الكابتن درايفوس، وكرّس وقته كله وطاقته لتعبئة الجمهور ضد الاعوجاج القضائي، ما إن أدرك أنه متهم بلا جريرة، على الرغم من رواسب الكراهية التي استوطنت خياله الشعري تجاه اليهود. انضم إليه في البداية مثقفون شتى كرهوا الصحافة اليمينية التحريضية والعبادة القومية للنزعة العسكرية. تجاهل اليسار باختلاف تياراته المسألة ولم يكن مستعدًا للانضمام إليهم. لاحقًا انقسم هذا اليسار، وتحول كثير من أعضائه إما إلى مناصرين دائمين لـ درايفوس أو إلى مناهضين له على طول الخط، ثم انتقل الانقسام إلى جميع المعسكرات، ولم يكن متعلقًا تقريبًا بمستوى اعتدال المحتشدين أو تطرفهم السياسي، سواء مع الضابط المتهم أو ضده.

لقد غيرّت تجربة هذا النضال - في البداية ضد العالم كله، ثم ضد تصاعد كراهية اليهود في معسكر اليمين الفكري والسياسي- موقفَ لازار تجاه اليهود بشكل تام، وأصبح صهيونيًا متحمسًا خلال وقت وجيز.

سرعان ما تبنَّى مراقب آخر لحالة الإذلال العلني التي لاقاها درايفوس، مصطلح «صهيونية»، اسمه تيودور هرتسل. تبرأ هذا الصحفي النمساوي، ذو التوجه «الليبرالي» المحافظ، هو أيضًا من أصله اليهودي لفترة طويلة؛ بل وسعى في مرحلة ما إلى أن يكون ألمانيًا قوميًا. بالتأكيد لم يكن في حاجة لأن يأتي إلى باريس لكي يكتشف ماهية العداء لليهود ولكي يتأمل الفكرة الصهيونية من خلالها؛ فقد أرّقته كراهية اليهود قبل ذلك بزمن طويل. كانت كراهية «الساميين» في

ذروتها في سنوات التسعينيات، في العاصمة ڤيينا، حيث أقام وعمل، وفي عام ١٨٩٧ انتخب فيها رئيس بلدية شعبوي كان من أكبر الغوغائيين المعادين لليهود في مطلع القرن.

لكن فيينا ليست باريس، بالنسبة لهرتسل، ولمثقفين يهود آخرين في شرق أوروبا؛ فالعاصمة الفرنسية لم تكن مكانًا جغرافيًا إضافيًا وحسب، وإنما غاية ورمز تاريخيان للتقدم والتنوير. فإذا بكراهية غير عقلانية تندلع تجاه اليهود في هذا المكان، الذي سيحظى في المستقبل بمكانة على خارطة الزمن، كما هو الحال بالضبط في مدن الشرق المتخلفة الواقعة في الخيال المتفائل في الزمن الماضى الذي يوشك على الانتهاء. هل هذا ما يخبئه الغد لليهود؟

تلقت فلسفة التقدم الأفقي للّيبرالية والديمقراطية الغربية ضربة قاسية من مظاهرات الشوارع في باريس، ومن الصحف التحريضية المنفلتة، ومن السلوك المنافق للنُخب السياسية ومن مجون قادة الجيش. أُدين درايفوس في نهاية عام ١٨٩٤. وفي مراسم تخفيض رتبته بعد ذلك بأيام قليلة ثارت ثائرة الجمهور الباريسي، وسُمعت مرارًا وتكرارًا هتافات غضب وكراهية من قبيل «فلتكن النهاية لليهود».

ما أن مرت بضعة أشهر حتى عكف تيودور هرتسل على كتابة مؤلفه الثوري القصير **دولة اليهود**. صيغت الفكرة لأول مرة في نص سُمّي **خطاب إلى آل روتشيلد**(90). بيد أنه، من المشكوك فيه أن هرتسل كان على علم بفكرة شارل فورييه(91) الرائدة. في المقابل اعترف هرتسل، في وقت لاحق، بأنه صاغ فكرة سيادة اليهود على أنفسهم فيما كان يسمع ألحان المسرحيات الغنائية لـ ريخارد فاجنر(92)؛ وهكذا انتهت قضية درايفوس الأولى بميلاد حركة قومية جديدة.

رد فعل بعض اليهود على ظهور الصهيونية

نُشر مقال إميل زولا الشهير «إني أتهم»، في بداية عام ١٨٩٨، أي بعد ثلاث سنوات من المحاكمة، وعندئذ بدأت قضية درايفوس الثانية في واقع الأمر. كانت تلك هي لحظة التحول التي نشأ خلالها معسكر درايفوس، وأدت في النهاية إلى إعادة النظر في المحاكمة وإلى إطلاق سراح الضابط الذي أُدين من غير إثم

اقترفه. ولربما ظهرت الصهيونية فيما بعد في مكان مختلف تمامًا لو أن زولا كان قد نشر مقاله المعارض في بداية عام ١٨٩٥.

رغم أن الفكرة الصهيونية وُلدت في باريس، فإن يهود فرنسا وبريطانيا وألمانيا لم ينضمُّوا إليها مطلقًا. والحقيقة أن شعب اليديش الغفير في الإمبراطورية الروسية ظل أيضًا غير مبال في البداية، ومتشككًا، بل ومعاديًا في غالبيته لها. حتى الحرب العالمية الثانية كان أتباع الحركة الصهيونية التي أسسها هرتسل، والتي انضم إليها برنارد لازار لفترة قصيرة، أقلية داخل أقلية. عندما حاول هرتسل عقد المؤتمر الصهيوني الأول في عام ١٨٩٧ في ميونيخ بألمانيا، وقَّع ٧٨ عضوًا من بين ٨٠ في الاتحاد العام للحاخامات في الرايخ الثاني على عريضة احتجاج أجبرته على نقل المؤتمر إلى بازل الصغيرة في سويسرا. وفي الإمبراطورية النمساوية المجرية قدمت ٥٠٠ طائفة يهودية مذكرة ممهورة بالتوقيع إلى القيصر طالبت فيها بحظرِ قيام الحركة الصهيونية نفسها.

كما عارض الصهيونية كبار حاخامات الطائفة الحسيدية(93) وسائر المعلمين الدينيين الرئيسيين ليهود شرق أوروبا وذلك لأسباب عقدية؛ فوفقًا للتلمود، لا يجب بأي حال من الأحوال الهجرة إلى أرض الميعاد كجماعة، ما دام المسيح لم يأت. الإله أعطاها، والإله أخذها، وهو وحده القادر على إعادتها. نُظر إلى خرق هذا المبدأ على أنه انتهاك لأمر مقدس ومعادٍ لليهود. فيما عدا ذلك أدرك كبار رجال الدين اليهودي جيدًا أن الصهيونية، أي القومية اليهودية، اندماج جماعي في إطار الحداثة في واقع الأمر، في أعقاب الصعوبات التي ظهرت في عمليات الاندماج الفردي (لم يكن من قَبيل المصادفة ظهور أولى الأفكار الصهيونية في أوساط البيوريتانيين(94) والأنجليكانيين(95) الأنجلوسكسونيين تحديدًا).

كان حزب الـ بوند(96) الضخم، الذي تأسس في العام نفسه الذي نشأت فيه الحركة الصهيونية، وكافح في سبيل الاستقلال الذاتي اليهودي العلماني والاجتماعي الديمقراطي، معاديًا للصهونية بكل جوارحه. حتى برنارد لازار الأناركي كفَّ عن الاستمرار في صهيونيته عندما اتضح له أن هرتسل قد بادر بإنشاء بنك صهيوني لتمويل الاستيطان في فلسطين. وقطَع كل العلاقات مع مؤسس القومية اليهودية عندما علم بأن ذاك قد وعد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني

بتهدئة الرأي العام الأوروبي بشأن مذابح الأرمن.

فضلت الكتلة اليهودية الكبيرة التي اقتلعت من الإمبراطورية الروسية مواصلة الهجرة باتجاه الغرب هي أيضًا، وليس استيطان فلسطينا لإقامة دولة يهودية فيها. مثلما ذكر سابقًا، حتى عام ١٩٢٤ هاجر أكثر من مليوني يهودي إلى الولايات المتحدة، في حين وصل عشرات الآلاف إلى الشرق الأوسط حتى ذلك الوقت، هجر بعضهم المكان بعد يأسهم من الظروف الصعبة. لكن بعد إغلاق الأبواب الأمريكية بدأ تدفق مؤثر للهجرات إلى فلسطينا. وأدى اعتلاء هتلر السلطة في ألمانيا عام ١٩٣٣ إلى تزايد الهجرة بعض الشيء إلى فلسطينا، حيث لم يكن لدى غالبية اليهود مكان يذهبون إليه. فلقد أغلقت جميع البلدان تقريبا الأبواب في وجوههم.

هجرة إلى فلسطينا؟

في عام ١٩١٧، عندما قررت بريطانيا، لأسباب استعمارية، الاعتراف بوطن يهودي في فلسطينا -في رسالة اللورد بلفور الشهيرة إلى اللورد روتشيلد- كان هناك ٧٠٠ ألف عربي وأقل من ٧٠ ألف يهودي، نصفهم يهود أرثوذكس معادون للصهيونية (في بريطانيا، على سبيل المثال، كان هناك ٢٥٠ ألف يهودي في ذلك الوقت، لم يفكروا مطلقًا في الهجرة إلى فلسطين ولم يهاجروا إليها حتى يومنا هذا).

في عام ١٩٤٧، أي بعد ثلاثين عامًا بالضبط، وعشية إقامة دولة إسرائيل، كان هناك مليون و٣٠٠ ألف عربي و٦٥٠ ألف يهودي يعيشون تحت الانتداب البريطاني. في نهاية حرب عام ١٩٤٨ - التي اندلعت بسبب رفض العرب قبول قرار الأمم المتحدة بشأن إقامة دولة يهودية على أرضهم - أصبح ٧٥٠ ألفًا من السكان الأصليين لفلسطينا، أي أكثر من نصف السكان، لاجئين وغير مسموح لهم بالعودة إلى ديارهم وأراضيهم.

مع تأسيس دولة إسرائيل، وصلت إليها حشود من مهاجرين يهود آخرين، خاصة الناجين من الإبادة النازية لليهود. أدى الصراع العربي الصهيوني في فلسطينا ورفض الاستعمار في الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي إلى ردود فعل عدائية ضد اليهود في العالم العربي، وإلى موجات أخرى من مهاجرين لم يكن لديهم مكان يتوجهون إليه سوى دولة إسرائيل (فضَّل غالبية اليهود الجزائريين

الذين كانوا يحملون الجنسية الفرنسية الهجرة إلى فرنسا)(97).

لا شك أنه بالإضافة إلى الاستعمار البريطاني الذي وضع الحركة الصهيونية على خارطة الدبلوماسية الدولية، فإن عملية الإبادة النازية هي ما مكّن الحركة الصهيونية من تحقيق حلمها بصورة جزئية.

إبادة «شعب العرق» اليهودي

«دائمًا ما كانت اليهودية شعبًا، ذا سمات عرقية خاصة، ولم تكن ديانة قطُّ... تُوظف الشريعة اليهودية في المقام الأول من أجل المحافظة على نقاء الدم اليهودي...».

أدولف هتلر،

كفاحي، ٦/ ١٩٢٥

في القرن العشرين، هُزم القديس أوغسطين، الذي حظر قتل اليهود في القرن الرابع الميلادي، بينما أباح إذلالهم فقط. في أواخر حقبة البحر الأبيض المتوسط القديمة وطيلة ١٥٠٠ عام من العصر الأوروبي، تعرض اليهود للملاحقة والكراهية، بل وللعنف المدمر في بعض الأحيان، لكن الأجندة النصرانية لم تتضمن قطُّ خطط إبادة كاملة ضدهم.

الحقيقة أن هتلر أيضًا لم يُرد قتل اليهود في البداية، رغم أنه سعى من البداية إلى التخلص منهم بأي ثمن؛ لكن عندما أدرك الفوهرر أنه لا يمتلك أي وسائل لإزاحتهم من أوروبا قرر إبادتهم.

إن استحواذ فكرة معاداة اليهود على هتلر كان أصيلًا، ولم يكن مجرد وسيلة ميكافيلية(98) لحشد الجماهير. ولم يكن أمرًا فرديًا أيضًا؛ لأنه شمل دوائر واسعة في الحزب الاشتراكي الوطني. في مقابل ذلك نفرت طبقات سياسية واجتماعية أخرى من اليهود، دون أن يخطر ببالهم أنه يجب إبادتهم؛ لكن عندما علموا بأمر التصفية الممنهجة، قبلوا به كحكم حتمي ممتثلين للقانون وللنظام ولواجب الوطن. كان قطاع كبير آخر من الجمهور غير مبال؛ لأنه اعتقد أن هذا الأمر لا يعنيه.

ليس معنى هذا أن الألمان كرهوا اليهود بشكل أكبر من كراهية البولنديين أو الأوكرانيين لهم؛ بل ربما كان العكس هو الصحيح (لا توجد مقاييس دقيقة للكراهية)؛ لكن لم تُخترع في أوساط البولنديين أو الأوكرانيين آلة إبادة فعالة كل هدفها هو محو أناس أحياء بشكل ممنهج معتمدة على إنجازات تكنولوجيا القرن العشرين.

إبادة حشود

قبل أن نتعمق قليلًا في غياهب ذلك الحدث الخاص في عصر الحداثة، يجدر التأكيد على أن كل إبادة للسكان في الماضي كانت ذات طبيعة خاصة، وربما يجب أن يقال هذا عن كل حدث تاريخي.

لم تكن الإبادات الجماعية شيئًا نادرًا عبر التاريخ؛ فقد أبيد العديد من الملايين من السكان الأصليين خلال عملية الاستعمار الأوروبي للقارة الأمريكية. وفي عام ١٧٧٠ قضى نحو ١٠ ملايين شخص في البنغال في شبه القارة الهندية بعد أن فرضت شركة الهند الشرقية البريطانية عليهم زراعة الأفيون بدلًا من الغذاء. كما قتل الاستعمار الأوروبي اللاحق العديد من الجماهير أيضًا؛ ولا نكاد نعرف حتى يومنا هذا، على سبيل المثال، العدد الدقيق للأفارقة الذين أبيدوا بين عامي ١٨٨٥ و ١٩٠٨ في الكونغو، مستعمرة الملك البلجيكي؛ لدينا تقديرات تتراوح ما بين ٦ ملايين شخص إلى ١٠ ملايين. كما هلك نصف السكان الأرمن في الإمبراطورية العثمانية، ما بين مليون إلى مليون ونصف شخص. في أوائل الثلاثينيات من القرن الماضي أثناء عملية التأميم القسري للأراضي الزراعية في أوكرانيا، مات نحو ٣ ملايين شخص من الجوع، معظمهم أطفال ورضع(99). وفي معسكرات الجولاج(100) قضى ما بين نصف مليون إلى مليون. وكذلك هلك نحو ٢٠ مليون في الصين ما بين ١٩٥٨ - ١٩٦٢ في أعقاب التأميم القسري للأراضي الزراعية. وذُبح نحو مليون ونصف مليون مواطن في كمبوديا الشيوعية بين ١٩٧٥ - ١٩٧٨. وفي عام ١٩٩٤، قُتل نحو ٨٠٠ ألف شخص من قبيلة التوتسي في رواندا، على مدار مئة يوم.

تشير تقديرات متحفظة اليوم إلى أن ما يقرب من ١٠٠ مليون شخص قد أبيدوا خارج نطاق المعارك، في القرن العشرين وحده.

وفي الحرب العالمية الثانية، قتل النازيون نحو ١١ مليون شخص في معسكرات الإبادة وفي مواقع قتل أخرى. كان نصفهم يهودًا ومن ذرية يهود. وكان الآخرون مرضى عقليين ألمان، وبولنديين من أصل كاثوليكي، وأسرى حرب من الاتحاد السوفييتي، وغجرًا، وشاذين جنسيًا، وأعضاء تنظيمات سرية ومعارضين سياسيين. وقد نفَّذ جهاز دولة حديث وفعال المذبحة الجماعية وأشرف عليها، مثلما شكلت أيديولوجية قومية محددة نقطة انطلاق للمشروع الوحشي ووجهته.

كانت القومية الإثنوبيولوجية الألمانية التي صنَّفت نفسها ومَن حولها عرقيًا هي البنية التحتية الأيديولوجية التي انبثق منها مفهوم الاستعلاء الماهيواني، الذي رأى أن الآخرين كائنات حياتهم ذات قيمة أدنى وغير معتبرة. إذا كان العديد من الأوروبيين قد عرَّفوا أنفسهم على أنهم أسمى وأجدر من رعايا المستعمرات - «السود» أو «الصفر»- فإن الألمان، الذين ليس لديهم مستعمرات تقريبًا، رأوا أن جيرانهم وبعض مَن يعيشون بينهم نوعٌ مختلف من البشر؛ فقد رأوا السلافيين أشباه بشر ولم يكن اليهود الـ«ساميون» في نظرهم آدميين قطُّ وإنما جراثيم. وهكذا استنُسخ تجريد الرعايا من إنسانيتهم في جميع أنحاء العالم الاستعماري في القرن التاسع عشر لدى الأوروبيين، وأتاح الانزلاق في النهاية إلى حرب شاملة، بعد عام ١٩٤١، تأسيس صناعة موت ملايين من البشر في قارة أوروبا «اليهودية-المسيحية».

علاوة على ذلك يصعب - على سبيل المثال - تخيل مشروع الإبادة النازية دون القتل الجماعي المهول في الحرب العالمية الأولى؛ ذلك القتل المتواصل الذي جعل رؤى أولئك الذين قضَوا وقتًا طويلًا في الخنادق وذهنيتهم أكثر تعنتًا، وأضفى شرعية على الوحشية الجامحة في الحرب التي ستتبعها. كان جزء من النازيين ومخططي إبادة اليهود والضحايا الآخرين من خريجي الحرب الشاملة الأولى، وبالنسبة لقادة الحزب ورؤساء قوات الأمن الخاصة وكتيبة العاصفة(101) والبوليس السري الألماني فإن السنوات العشرين التي فصلت بين الحربين لم تكن سوى استراحة قصيرة بين معارك نهاية العالم.

وإذا كان اليهود قد مثَّلوا طيلة القرن التاسع عشر مظهرًا ملموسًا للرأسمالية المفترسة التي تقودها البنوك الدولية، فقد أصبحوا أيضًا، منذ ثورة أكتوبر/تشرين الأول(102)، تجسيدًا للبلشفية(103) الآخذة في الانتشار. لقد استثارت وأذكَت من جديد حقيقةُ أن كثيرًا من الاشتراكيين الذين يَعتَزُون إلى أصول يهودية كانوا في طليعة النضال ضد الشوفينية المتعسكرة في ألمانيا، كما في الثورة الروسية عام ١٩١٧- استثارت الخيال القديم الكاره لليهود؛ حتى لقد أصبحت اليهودية البلشفية هي التهديد الأكبر للأمة الآرية الألمانية، وسرعان ما تبنَّى اليمين الشوفيني الفرنسي أيضًا وجهة النظر القائلة بأن اليهود هم حملة لواء الثورة

العالمية، كما اعتبرت الطبقة الوسطى في أوروبا بأكملها أن البلاشفة اليهود غير وطنيين خائنين كل ما يبتغونه هو تقويض النظام البرجوازي واستباحة الوطن من قِبل سلطة يهودية كوزموبوليتانية.

بعد أن تحرر اليهود من الأحياء اليهودية (الجيتوهات) خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر قرر النازيون، قبل أن تتبلور فكرة الإبادة، إعادتهم إلى أحياء يهودية جديدة، خاصة في بولندا وليتوانيا. كانت هناك حاجة ملحة لعزلهم عن سائر السكان لمنع أي احتمال، ولو طفيف للغاية، للتعاطف أو لإظهار تضامن معهم؛ كان من الضروري تحويلهم إلى نبت غريب تمامًا، نبت بائس، وجائع ومستنزف. ومن الأحياء اليهودية مَن نُقل إلى معسكرات الاعتقال، ثم إلى غرف الغاز وفي النهاية إلى المحارق. لم يفلح هتلر فعلًا في إزاحة اليهود من أوروبا؛ فـ «اضطُر» إلى دفن زُفات غالبيتهم في تراب قارته الحبيبة.

نظام فيشي(104) واليهود

لم يُنشئ النازيون أحياء يهودية أو معسكرات موت في فرنسا، وهولندا، وبلجيكا والمناطق المحتلة الأخرى في غرب أوروبا؛ لكنهم أنشأوا معسكرات اعتقال مؤقتة «فحسب»، ثم أجبروا اليهود على ارتداء شارة صفراء(105)، وألغوا الحقوق المدنية التي مُنحت لهم، وفي النهاية أرسلوا العديد منهم إلى معسكرات الإبادة شرقًا. تعاونت أنظمة الوصاية التي نصَّبها النازيون مع المحتلين أيضًا في مسألة اليهود. وإذا كان هناك فرنسيون شعروا بعدم ارتياح إزاء حقيقة أن نظام فيشي الخاضع لإشراف ألماني كان يرسل مواطنين فرنسيين من أصل يهودي (ولدوا في فرنسا)، فإن معاناة هؤلاء كانت لا تُذكر في مقابل معاناة اليهود الذين هاجروا إلى فرنسا في القرن العشرين، ولم يولدوا فرنسيين؛ لقد هلك الجزء الأكبر من اليهود «الشرقيين» مع نهاية الحرب دون إثارة أي احتجاج.

لم يكن نظام فيشي، المحافظ والرجعي، ثوريًا ولا فاشيًا، رغم تفاخره بمصطلح «ثورة وطنية»، وفقًا لروح العصر؛ إذ لم يتبَنَّ حكم الحزب الواحد، ولم يرأسه زعيم راديكالي هائج كما هو الحال في إيطاليا، ولم يحاول بجدية تحويل المجتمع الفرنسي إلى مجتمع شمولي. صحيح أن الاسم «دولة فرنسية» حل محل «جمهورية فرنسية»؛ لكنَّ كلًا من النشيد الوطني الفرنسي (لا مارسييز) والعلم

ثلاثي الألوان، هذان الرمزان المركزيان اللذان خلَّفتهما الثورة الكبرى، بَقِيَا على حالهما؛ ربما في إشارة لا شعورية إلى أن فرنسا لم تكن بحاجة إلى ثورة وطنية أخرى في القرن العشرين.

في الوقت نفسه، وعلى عكس نظام موسوليني، كان نظام فيشي نظامًا كارهًا عتيدًا لليهود، سعى إلى تكييف نفسه قدر المستطاع مع المعايير العنصرية للنظام النازي في ألمانيا. في عام ١٩٤٠ استبعد جميع اليهود من الخدمة العامة، ومن الجيش، ومن جميع المناصب التعليمية، ومن الإذاعة وصناعة السينما. سُجن اليهود الذين لم يحصلوا بعدُ على الجنسية الفرنسية في معسكرات، ولاحقًا أرسلوا إلى الشرق. وعندما طلب الألمان عام ١٩٤٢ يستقدمون شحنة من اليهود إلى معسكرات العمل في ألمانيا، قام بيير لافال (Laval)، رئيس الوزراء الفرنسي وقتذاك، بمبادرة منه ومن دون تردد، بإلحاق أبنائهم بهم، كما سُلبت معظم ممتلكات اليهود دون أن يكترث الجمهور الفرنسي لهذا.

لكن من هذا كله لا يمكن استنتاج أن سائر الفرنسيين في ظل الاحتلال النازي وتحت نظام فيشي كانوا راضين عن التحريض المعادي والعنصري والراديكالي ضد اليهود من جانب أجهزة الدعاية الحكومية؛ بطبيعة الحال لم يكن كل الفرنسيين مثل الكاتب العبقري فرديناند سيلين(106)، الذي تَكسَّب أثناء الحكم الفيشي من إعادة تصنيف اليهود عرقيًا، واعتقد أن التاريخ قد عاد أخيرًا إلى مساره الصحيح. من الوجيه أن نفترض أن الكراهية المتطرفة للآخر اليهودي كانت أمرًا غريبًا بالنسبة لكثيرين. ثمة شعار معروف وجد مكتوبًا ذات صباح على جدران مدينة كليرمون فيران يقول: «أيها السَّفلة [مصطلح مهين للألمان] ارفعوا أيديكم عن يهودنا القذرين». كما أننا على يقين أيضًا أنه من بين أعضاء أكسيون فرانسيس الملكيين(107) واليمينيين الآخرين المعادين لليهود، كان هناك من انضموا إلى الحركة السرية بدافع العداء الوطني للمحتل الألماني.

قلة ممن أرسلوا إلى المعسكرات عادوا منها. قبلت فرنسا إعادتهم بالطبع، حتى إنها أعادت إليهم ممتلكاتهم بإجراءات سريعة؛ وإن رفضت، في الوقت نفسه، استقبال آلاف اليهود المقتلَعين من الشرق الذين ارتحلوا في جميع أنحاء أوروبا بلا بيت أو مأوى في ذلك الحين، شأنها في ذلك شأن بريطانيا، وهولندا، والولايات

المتحدة ودول أخرى. لم يشعر أحد بالمسؤولية تجاه هؤلاء في ظل الوضع الاقتصادي الصعب، فاضطروا في النهاية إلى الهجرة إلى إسرائيل، الدولة الوحيدة التي لم تكن مجرد دولة مستعدة لقبولهم، ولكنها فعلت ذلك بكل سرور(108).

لم يؤدِّ الشقاق المؤقت بين فرنسا ويهودها خلال فترة فيشي إلى الفرار منها بعد الحرب؛ إذ لم يكن هناك تقريبًا من اليهود الفرنسيين مَن فضَّل الأرض المقدسة الأسطورية على وطنهم فرنسا. وعلى الرغم من أنه غُدر بهم «قليلًا» فإنهم فضلوا أن يَظلوا فرنسيين.

انبعاث «شعب العرق» اليهودي؟

«لن يكون اليهودي، مثلًا، معاديًا للسامية: لكنّ كثيرًا من اليهود الصهاينة يبدون لي في المجمل معادين للسامية بصورة عكسية».

جورج أورويل،

«معاداة السامية في بريطانيا»، ١٩٤٥.

يشير مارتن هيدجر(109) في اليوميات التي شرع في كتابتها تحت عنوان **دفاتر سوداء**، في سنوات الثلاثينيات، حين كان عضوًا في الحزب القومي الاشتراكي، إلى أن «اليهود عاشوا على الدوام وفق المبدأ العرقي (...)». كان الفيلسوف ابن مدينة فرايبورج يمقت اليهود بشكل مبتذَلٍ وفلسفيٍّ على حد سواء. برزت في كتاباته آراء مُغرضة وفظة ضد اليهود، مشوبة بملاحظات «ميتافيزيقية» مستعلية، إن لم تكن بيولوجية.

بالرغم من أن هيدجر اعتقد خلال فترة عضويته بالحزب القومي الاشتراكي أن «تاريخ أي شعب هو الأداة التي يستطيع من خلالها العودة إلى جذوره وإظهار أصالة وجوده»، فإنه لم يكن مُلمًّا إلمامًا واسعًا بالتاريخ، ويبدو أنه لم يسأل نفسه قطُّ أيضًا مَن الذي صنَّف اليهود عرقيًا ولماذا.

طُرحت في بداية هذا المقال فرضية مَفادها أن النصرانية هي مَن بدأت بتصنيف اليهود عرقيًا، ثم بعد ذلك، ومن دون خيار، انغلقت اليهودية البحر متوسطية على نفسها، وهجرها كثير من معتنقيها، وقَبِل أولئك الذين ظلوا على إيمانهم بقانون العزلة وتمسكوا بإيمانهم رغم المضايقات والاضطهادات. لكن مع ظهور التحرر في العصر الحديث تهافَت يهود أوروبا على الثقافات القومية وسعَوا إلى الاندماج فيها بكل قُواهم العقلية والفكرية. برَّدت الكراهية الجديدة لليهود، من جانب اليمين واليسار على حد سواء، هذا الحماسَ بعض الشيء، وإن لم تُنهِهِ تمامًا. رفض غالبية اليهود صراحة تعريف أنفسهم كعرق، على عكس ما اعتقده هيدجر.

في مقابل ذلك، كان موقف كثير من الصهاينة مختلفًا تمامًا. مثَّلت البنية الأساسية لكراهية اليهود في التراث النصراني طويل الأمد نقطة انطلاق أولية

بالنسبة لهم لاختلاق شعب - عرق حديث.

حاول معظم مفكري وقادة الصهيونية، في بداية مسيرتهم الفكرية، أن ينتموا إلى الدول الأوروبية؛ فقد انحازوا تمامًا إلى الأفكار القومية التي تبلورت في مختلف الدول، وسعَوا للانضمام إلى الأمم الناشئة. لكنَّ كراهية اليهود جعلتهم يبحثون، في مرحلة حاسمة من تطورهم الفكري، عن هُوية أخرى مغايرة.

إلام تستند هذه الهوية، على التوراة؟ على الإيمان؟ كان معظمهم ملاحدة أقحاحًا، أدركوا جيدًا أن الناس هم مَن يصنعون التاريخ وأنه لا مجال لأن يفعل الرب ذلك نيابة عنهم. لكن السمَّ يكمن في الدسم؛ إذ «باستثناء» كل من دِينهم الذي يشهد انحسارًا والعداءِ تجاههم، لم يكن يجمع اليهود أي قاسم مشترك آخر. لم تكن لديهم «مواد» علمانية سابقة ليصوغوها وينشئوا منها قومية، لم يتقاسم يهود العالم عناصرَ ثقافة شعبية، أو لهجات متقاربة للغة واحدة أو تاريخًا متجانسًا تقريبًا على أرض واحدة؛ لقد بقي لهم إذًا، من دون خيار، أن يبحثوا عن قاسم آخر يحتويهم.

دعاة الصهيونية وأصل اليهود

سنركز للحظات على الكتابات الرئيسية للصهيونية ومؤلفيها. إذا كان تيودور هرتسل قد دفع بالفكرة الصهيونية في ١٨٩٧، فإنه لم يكن المخترع الحصري لها؛ فقد سبقه بضع شخصيات يهودية اقترحوا سيادة ذاتية قومية كردٍّ محتمل على الكراهية المتعاظمة تجاه اليهود، ويمكن أن نعد موشيه هيس(110)، المفكر الألماني اليهودي، أولهم وأهمهم.

يمكننا أن نعدَّ هيس أيضًا، الذي ولد في بون، أحد رواد الشيوعية في ألمانيا؛ فقد تعاون منذ اللحظة الأولى مع ماركس وإنجلز في نشر الأفكار الجديدة عن المساواة، ورأى في نفسه لفترة طويلة ثوريًا عالميًا غير مبالٍ بأصله اليهودي على الإطلاق.

في مرحلة ما، مثلما فعل هاينرش هاينه[٣] من قبله بالضبط، يئس هيس من الجو السياسي المشحون والمعادي لليهودية في ألمانيا في أعقاب ثورة ١٨٤٨ وانتقل للعيش في باريس. وهناك بدأ يهتم بشكل أكبر بالأدب الأنثروبولوجي الفيزيائي

الذي بدأ في الانتشار في تلك الفترة، وفي الآن ذاته كان مفتونًا تمامًا بصعود القومية في إيطاليا. توصل المرتحل الألماني سريعًا إلى نتيجة تشاؤمية تقول بأن كراهية اليهود لن تتلاشى أبدًا. على الرغم من وجود صراعات طبقية دائمًا عبر التاريخ على نحو ما صاغه ماركس وإنجلز بشكل جيد في **المانفيستو الشيوعي**، فإن الصراعات العرقية كانت أكثر أهمية وتأثيرًا على الدوام.

نشر هيس في عام ١٨٦٢ مؤلَّفه **روما وأورشليم: المسألة القومية الأخيرة**، الذي صاغ فيه مذهبه الجديد. ووفق ما ذهب إليه فإن اليهود كانوا دائمًا كتلة عرقية مستقلة. كانت بداية العرق اليهودي في مصر القديمة؛ حيث يمكن تمييز نماذج من بين بناة الأهرامات في رسوم قبور الفراعنة تشبه اليهود المعاصرين بشكل مذهل(111). لم تكن التوراة هي ما حافظ على اليهود كيهود؛ ولكنه الانتماء العرقي. «العرق اليهودي عرق أصيل، ظل كما هو، بكامله، وليس للإقليم سلطة عليه في تغيير صورته في أي مكان في العالم».

ووفقًا لرؤية هيس، فإن الحل لمعاناة هذا العرق هو الهجرة إلى فلسطينا، التي ينحدر أصله منها. والاستقلال القومي وحده هو ما سينهض بهذا العرق السامي ويعيد إليه كرامته المفقودة. وإلى حين العودة إلى الوطن التاريخي يجب الاعتماد على الدين في الحفاظ على الهوية اليهودية، ومن الممكن التحرر منه لاحقًا.

لم تنبثق حركة سياسية عن كتاب هيس، ولم يكن له صدى تقريبًا؛ فقد صدر مبكرًا للغاية، ولم تُترجَم كراهيةُ اليهود في عصره إلى حركات سياسية تحشد الجماهير، ولم يكن مصطلح صهيونية بالطبع موجودًا آنذاك.

وكذلك الأمر في كتاب **التحرر الذاتي!** لـ ليئون بينسكر(112)، الذي نُشر أيضًا في ألمانيا عام ١٨٨٢، لم يكن مصطلح صهيونية موجودًا بعدُ، لكن مطلب سيادة اليهود على أنفسهم يستند إلى فكرة وجود شعب-عرق أجنبي ومشتت تعود أصوله إلى الأرض المقدسة.

يطرح اليهودي الروسي بينسكر - من جملة ما يطرح - الحجةَ القائلةَ بأن اليهود يعانون أكثر مما تعانيه قبائل السود في أفريقيا؛ لأنهم يدركون جيدًا أن منشأهم من عرق حسيب. ويؤكد أيضًا على أن اليهود سيظلون يعانون طالما امتنعوا

عن ذكر أن منشأهم من العرق السامي أمام الآريين. فأيُّ شعب آخر، غير الشعب اليهودي، يستطيع الإشارة إلى «ماضٍ تاريخي، وعرق مشترك نقي من الأخلاط، وقوة حيوية لا تنضب»؟

كان بينسكر أقل بيولوجيَّة من موشيه هيس، لكنه لم يكن أقل ماهيوية في مقاربته؛ ففي مؤلفاته أيضًا، مثلما سبق، لم يظهر مصطلح «صهيونية»؛ بل سيظهر المصطلح للمرة الأولى بعد ذلك بثمان سنوات فقط. صكه ناتان بيرنباوم(113) في عام ١٨٩٠، وكان الاسم «صهيون» في ذلك الوقت مرادفًا لـ أورشليم، وقد انتمى بيرنباوم، ابن فيينا، إلى جماعة ما قبل قومية تُسمى «محبة صهيون»(114).

كان العامل البيولوجي لدى كل من بيرنباوم وهيس على حد سواء حاسمًا بشكل خاص، وبشكل أكبر مما لدى بينسكر. وقد ادعى بشكل قاطع أنه «لا يمكن تفسير التفرد العقلي والعاطفي لشعب معين إلا من خلال العلوم الطبيعية»، وأنَّ «تفرُّد الشعب يكمن في تفرد العرق، وأن تعدد الأشكال القومية مرده الاختلافات العرقية، وأن الثقافة واللغة لا تُنشئان شعوبًا؛ بل الأصلُ العرقي». ويواصل بيرنباوم القول: إن تشامبرلين(115)، العنصري البريطاني الشهير، محق في فرضياته العامة فيما يتعلق بالأعراق، لكنه يخطئ عندما يصف اليهود بقوله «شعب أخلاط»(116). لم يتزوج اليهود على وجه التحديد بآخرين؛ ولذلك بقوا أنقياء، وهم بالطبع جزء لا يتجزأ من العرق الأبيض.

استولى هرتسل، الذي التقى بيرنباوم وعيَّنه سكرتير اللجنة التنفيذية للمؤتمر الصهيوني الأول، على مصطلحه «صهيون»، لكنه تردَّد فيما يتعلق بموضوع العرق. وُجدت كلمة «عرق» في كتابه **دولة اليهود** وفي كتاباته الأخرى أيضًا، لكن من دون أي إيحاءات بيولوجية ماهيوية. صحيح أنه رأى الشعوب الأوروبية أكثر تفوقًا من السكان البربريين الذين يقيمون المستعمرات؛ لكن جوفينو، وتشامبرلين ومفكري التصنيف العرقي الآخرين لم يُقنِعوه. على سبيل المثال، عندما دعاه الكاتب يسرائيل زانجويل(117)، المعروف بدمامته، ذات يوم على العشاء في لندن، كتب بعد اللقاء: «إنه يصر على وجهة النظر المتعلقة بالعرق، التي لا أستطيع تقبُّلَها. ويكفيني أن أنظر إلى نفسي وإليه كي أقول: نحن كيان تاريخي، أمة من عناصر

أنثروبولوجية مختلفة. ويكفي دولة اليهود ذلك. لا توجد أمة متجانسة عرقيًا».

«كيان تاريخي»؟ مفهوم غامض وغير مقنع فيما يتعلق بالجاليات الدينية اليهودية الموجودة في أنحاء العالم والتي تختلف ثقافتها العلمانية ومصيرها التاريخي من مكان لآخر بشكل تام. لكن موقف هرتسل يدل على أن الليبرالية الواعية لعرّاف دولة اليهود لم تكن سياسية فحسب؛ بل كانت أيديولوجية أيضًا. اشمأز هرتسل من الكراهية العنصرية تجاه اليهود التي استشعرها من حوله دون أن يتحول بسبب ذلك إلى إنسان ماهيوي يرى أن اليهود مركز كل شيء.

هل تمثل موقفه المرن والمنفتح في المنظمة العالمية التي أنشأها؟ يمكن الافتراض بأن صهاينة آخرين فكروا مثله؛ بيد أن كثيرين آخرين فضّلوا التصنيف العرقي الذاتي لتبرير نهجهم السياسي. سوف نختار عدة أصوات بارزة ومركزية في المعسكر الصهيوني الآخذ في التنامي.

اختلاق شعب-عرق يهودي

كان المُنظِّر الأكثر جدية بالحركة الجديدة، واليد اليمنى لهرتسل، هو الكاتب المعروف ماكس نوردو(118). كان مثل هرتسل مجريًا علمانيًا حاول مدة طويلة أن يكون ألمانيًا، لذا تخلّى أيضًا عن اسمه اليهودي (مئير سمحا زيدفيلد). حدت به خيبة أمله من محاولته الشخصية للاندماج إلى نتيجة بسيطة: لا يمكن تغيير العرق. لم تخلق كراهيةُ اليهود العرقَ اليهودي؛ لكنها أيقظت وعيه فحسب. من وجهة نظره ثمة روابط دم بين العائلة الإسرائيلية كلها، لا يمكن أن تنفصم، حتى لو تطلّعنا إلى ذلك. صحيح أن هذا العرق قد ضمُر في المنفى، فغدا صغيرًا وضعيفًا جسديًا، لكن العودة إلى الوطن العتيق، وإلى العمل في الأرض والحياة في الهواء الطلق ستحسّن مظهره وقامته، بمساعدة سياسة رياضية ناجعة.

عانى نوردو طيلة حياته من سيطرة فكرة الضمور على تفكيره. رأى أن الثقافة والفن الحديثين عَرَضان حادّان لأمراض نفسية (تشمل الشذوذ الجنسي أيضًا)، وأنهما يُحِطّان من أوروبا ويضعفانها. ووفقًا لفلسفته فإن يهود أوروبا يمثلون جزءًا من هذا الضمور، وأن الصهيونية وحدها، التي ستقتلعهم من القارة العجوز، هي التي تستطيع أن تُحسّن العرق اليهودي وتُبرّئه، وتجعله أكثر قوة ومنعة.

كان ڤلاديمير جابوتنسكي(119) قائدًا بارزًا آخر في الجيل الأصغر للحركة الصهيونية الآخذة في الانتشار، كان مبعوثًا (روسيًا) في المؤتمر الصهيوني السادس عام ١٩٠٣، الذي انعقد برئاسة هرتسل، وقد غدا فيما بعد الزعيم اليميني للحركة الصهيونية، وعُرف بـ «الصهيوني التصحيحي». كان ليبراليًا مثل هرتسل في مشاعره السياسية، وكان عنصريًا مثل نوردو في مشاعره القومية بل وأكثر دأبًا منه. ومنذ عام ١٩٠٤ كان على قناعة بأنه:

«[...] لا يجب البحث عن مصدر الشعور القومي في ما يتعلمه الإنسان [...]

وإنما في دمه، وفي النموذج الجسدي العرقي الخاص به، وبه فقط [...]».

لذلك نحن لا نؤمن بالاندماج الروحي؛ إذ من المستحيل من الناحية الجسدية، أن يتبنّى اليهودي، الذي وُلد لعدة أجيال ذاتِ دمٍ يهودي نقي من أي أخلاط، مِزاجًا ألمانيًا أو فرنسيًا؛ مثلما أنه من المستحيل تمامًا أن يكف الزنجي عن أن يكون زنجيًا.

كان مفهوم «عرق» بالنسبة لجابوتنسكي علميًا تمامًا. كان واثقًا أنه بالرغم من عدم وجود أعراق نقية، فإنه يمكن إيجاد المركب العرقي في المستقبل عن طريق فحوصات الدم أو إفرازات الغدد. وبذلك سيتضح في المستقبل أن هناك عرقًا إيطاليًا، وبولنديًا وهكذا. لكن ينبغي الحذر؛ لأن الدين الذي حافظ على التفرد اليهودي قد تراجع، كما أن خطر اختفاء العرق المختار قائم. وسيكون التجمع في أرض الميعاد الضمانة الوحيدة لمنع ذلك الخطر الوجودي.

إذا اعتقد أن يمين الوسط الصهيوني كان عنصريًا في أساسه، فلا بد من تصحيح هذا الاعتقاد. تشاركت شخصيات صهيونية أخرى ممن مالوا أكثر نحو اليسار مع نوردو وجابوتنسكي وجهة نظرهما. على سبيل المثال، كان مارتن بوبر، الفيلسوف الديني الكبير الذي انضم إلى الحركة الصهيونية وغدا رئيس تحرير المجلة الناطقة باسمها، فولكيشيًا(120) قوميًا لم يكن موقفه إزاء القومية ليخجل فيخته(121)؛ فالشعب، في رأيه، جماعة تتشارك الدم في المقام الأول أو سلسلة بيولوجية لأجيال عديدة. لقد جزم بثقة وجودية أن «الدم هو الجذر والقوة المعيلة لكينونة الفرد». وأضاف أن الدم هو ما يمنح طبقات القوة الروحية عمقها.

ندم بوبر بعدما أيَّد النزعة العسكرية الألمانية في الحرب العالمية الأولى

وأصبح داعيًا دؤوبًا للسلام مع النأي تدريجيًا عن الصوفية البيولوجية الزائفة في موقفه من القومية اليهودية. بل وأيَّد الجماعة الهامشية الأورشليمية «بريت شالوم»(122)، التي سعت إلى تسوية عادلة مع الفلسطينيين في إطار دولة ثنائية القومية، دون نجاح كما هو معروف.

انتمى آرثر روبين(123) أيضًا إلى أعضاء تلك الجماعة «اليسارية» خلال مدة قصيرة، وهو أحد الشخصيات الرئيسية والأكثر إثارة للفضول في تاريخ المشروع الصهيوني. كان روفين ناشطًا مؤثرًا ومفكرًا مثاليًا في الوقت نفسه، وعالم اجتماع جامعيًا وخبيرًا «علميًا» في الأعراق. رأى نفسه منذ البداية خلفًا لماكس نوردو، وأراد أن يكون ألمانيًا بكل جوارحه. عندما كان يدرس في ألمانيا نشر بحثًا في مجال تحسين الأعراق بعنوان **الداروينية وعلوم المجتمع**، وتحوَّل هذا الموضوع لأطروحة الدكتوراه الخاصة به أيضًا.

هاجر إلى يافا عام ١٩٠٨ وعُيِّن رئيسًا لـ«المكتب الفلسطيني للاستيطان» التابع للهستدروت الصهيونية. وصار المنظم الرئيسي لشراء الأراضي العربية ونقلها إلى اليهود. وكان مع آخرين وراء فكرة إنشاء أول كيبوتس(124)، وفي عام ١٩٢٦ نال وظيفة أستاذ في الجامعة العبرية في القدس، وأصبح أول عالم اجتماع في فلسطين الانتدابية.

لم يكن علم الاجتماع في تلك الفترة فرعًا دراسيًا بارزًا بعد. كان من الممكن أن يندرج تحته كل شيء تقريبًا، بشرط أن يتضمن البحث معطيات إحصائية. وفي عام ١٩١٤ جزم من سيصبح أول «عالم اجتماع» صهيوني أن اليهود ليسوا عرقًا نقيًا تمامًا بسبب تَرحالهم في العالم، بيد أنهم، بالتأكيد يشكلون جماعة وراثية جاءت من فلسطينا. فاليهود هم أحفاد المحاربين مع الملك داود، وقد طوروا سجايا فكرية فريدة ليست لدى باقي الشعوب بسبب نفيهم ونضالهم الشديد من أجل بقائهم.

هل احتفظ جميع اليهود بتلك السجايا الفكرية؟ إن إجابة روفين قطعية: لا على الإطلاق؛ فيهود الشرق العربي، الذين يشبهون عرب اليوم، لا يماثلون يهود أوروبا، وثمة شك في أن تشجيع هجرتهم إلى فلسطين أمر مُجد (إلا لو كان الأمر

يتعلق بالحاجة إلى عمالة رخيصة فحسب). **في المقابل، يجب على الـ «إشكناز» أن يسارعوا بالهجرة إلى أرضهم، ليس بسبب الاضطهاد الذي يتعرضون له ولكن** لسبب آخر: «**يقضي الزواج المختلط على سمات العرق ويَحُول دون تطور مواهب الأجيال القادمة**». ومضى يقول: «**يمكن للصهيونية أن تجد مبررها في الانتماء العرقي لليهود إلى شعوب الشرق الأدنى فقط، أكثر من أي وقت مضى. وهأنذا أجمع الآن مواد كتاب عن اليهود ستكون فرضيته الأساسية هي مسألة العرق**».

صدر الكتاب بالفعل بالعبرية وبالألمانية عام ١٩٣٠، في تل أبيب وفي برلين، تحت عنوان **سوسيولوجيا اليهود**. وهو يؤكد فرضية تميز العرق اليهودي ويبرز الافتراض القائل بأن اليهود في البداية لم يكونوا ساميين في كنعان وإنما هندو أوروبيين، لكنهم اختلطوا بالساميين ولذلك أصبحوا ماديين وخاطروا بالضمور. التقط عالم الاجتماع الأورشليمي صورًا عديدة ليهود، وقاس رؤوسهم وأنوفهم، ونَسَخ وقارن بصمات الأصابع، وكل ذلك من أجل الإسهام في تحسين العرق اليهودي، وبخاصة الإشكنازي.

بعد عدة أشهر من وصول هتلر إلى السلطة سافر عالم الاجتماع من أورشليم إلى ألمانيا ليلتقي البروفسير هانس جونتر، الذي كتب مؤلَّفًا في عام ١٩٢٢ أصبح الأعلى مبيعًا بعنوان **السمات العرقية للشعب الألماني**. وفي عام ١٩٣٠ نشر جونتر أيضًا **السمات العرقية للشعب اليهودي**، الذي حظي بنجاح أقل. وقد انضم في عام ١٩٣٢ إلى الحزب القومي الاشتراكي، وأصبح فيما بعد مهندس إبادة الغجر. ساعده الحزب في الحصول على وظيفة في جامعتي فيينا وبرلين، وبعد ذلك عُيِّن أستاذًا في جامعة فرايبورج ودرَّس بها جنبًا إلى جنب مع هيدجر، وأصبح أهم منظِّر لنظرية العرق حتى أنه سُمي «جونتر عرق» في دوائر الحزب، وفي عام ١٩٤٥ حوكم بسبب نشاطاته النازية بالسجن لمدة ثلاث سنوات، ومُنع من التدريس في الجامعة إلى الأبد.

لا ندري عن أي شيء تحدَّث جونتر وروبين. لقد عبَّر جونتر قبل ذلك عن تقديره الشديد للصهيونية، لا سيما بسبب نيَّتها المباركة في الفصل بين اليهود وغير اليهود. رأى روبين في جونتر حُجَّةً في مجال أنثروبولوجيا الجسد وعلمِ تحسين النسل وأثنى عليه كثيرًا، وذلك في منشوراته وخطاباته حتى وقتِ لقائهما. ويمكن

الافتراض، بالطبع، بأن الأستاذين تَحدّثا عن السياسة بوصفها بيولوجيا تطبيقية وعن الأعراق المختلفة. ومن المؤكد أنهما تَداوَلَا خلال الحديث كلمات مثل «نوردي»، و«آري»، و«سام». كما يمكن الافتراض بأن الاثنين اتفقا فيما بينهما - وبخاصة بسبب أخلاقهما الأكاديمية وإن لم يكن بسببها فقط - بأنه ليس كل اليهود أدنى من الآريين، لكن من المؤكد أنهم مختلفون عنهم تمامًا.

لم يلتقِ آرثر روبين بالطبع مارتن هيدجر كي يقنعه بأن اليهود عَدُّوا أنفسهم عِرقًا على الدوام. هناك شك في أن الفيلسوف سمع ذلك من أستاذه إدموند هوسرل، الذي اعتنق المسيحية ولم يَعُدّ نفسه يهوديًا. ويمكن التخمين أيضًا بأن حنة آرندت(125) - عشيقته الشابة التي تزوجت في وقت لاحق من شخص غير يهودي - لم تُوجِّهه للاعتقاد بأن اليهود يَعُدُّون أنفسهم عِرقًا؛ لقد أدرك هيدجر ذلك منذ البداية ومن تلقاء نفسه؛ تمامًا مثلما كره أجداده حول الغابة السوداء(126) اليهود دون أن يَرَوا يهوديًا ولو مرة واحدة في حياتهم.

لقد اعتقد الفيلسوف ذلك؛ إذ إن اعتقادَ جميعِ زملائه الأساتذة الألمان في سنوات الثلاثينيات والأربعينيات كان اعتقادًا معاديًا لليهودية متوافقًا مع روح العصر أكثر من أي وقت مضى، كان اعتقادًا نفكر بمقتضاه ولا نستطيع التفكير فيه بشكل نقدي أبدًا.

كم كان الفيلسوف الكبير، ابن فرايبورج، محقًا عندما كرر ادعاءه بأن الكلمات تفكر من خلالنا أكثر مما نفكر نحن من خلالها!

مَن هو اليهودي؟
مِن بصمات الأصابع حتى الحمض النووي

«على الرغم من التحليل الجيني المُعمَّق وصولًا إلى المستوى الأساسي للغاية، الجزيئي - وربما بسببه؟- لم ينجح البحث العلمي في فك شفرة الأصل البيولوجي المشترك لليهود على اختلاف طوائفهم بشكل لا يَقبل الجدل...».

رفائيل بلاك،

الصهيونية وبيولوجيا اليهود، ٢٠٠٦

سيصادف المتجول اليوم في المدن الإسرائيلية أسماء جميع القادة والمفكرين الصهاينة الذين ورد ذكرهم حتى الآن -باستثناء اسم برنارد لازار المتمرد، الذي خالف هرتسل الرأي في مرحلة ما- تَلمَع على لافتات الشوارع الرئيسية. أصبحت المستوطنات والكيبوتسات والمعاهد الدينية والمدارس مواقعَ تَذكارية تُسمَّى بأسمائهم. لم يتمّ حتى الآن التعبير عن أي تَحفُّظات جدِّيَّة حول مشاركة الآباء المؤسسين للصهيونية في التصنيف العرقي لليهود؛ على الرغم من المنطق الرهيب الذي كان راسخًا في قلب الإبادة اليهودية في الحرب العالمية الثانية. وعكس ذلك هو الصحيح؛ صحيح أن المصطلح اللعين «عرق» قد تَوارَى (استُبدِلَ بوجه عام بمصطلح «إثنوس»)(127)، لكن الاعتقاد الذي تَشارَكه كثير من الصهاينة، الذي يقول بوجود قاسم بيولوجي مشترك بين اليهود دائمًا وأبدًا، مستمرٌ في التنامي في الطبقات العميقة للغاية بسياسة الهويات في إسرائيل.

صحيح أن مصطلح «عرق» ظهر في أوساط اليسار الصهيوني أقل كثيرًا من ظهوره لدى الوسط واليمين الصهيونيين، لكن جميعهم تقريبًا تقاسموا رؤية ماهيوية حول اليهود. من المضحك حقيقة أن دافيد بن جوريون، مؤسس دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، كان يعلم جيدًا في عام ١٩١٨ أن سكان مملكة يهودا لم يُنفَوا قطُّ، ولذلك كتب بشكل جازم، وبمشاركة صديقه يتسحاق بن تسيفي(128) الذي سيصبح رئيسًا لدولة إسرائيل: «أن تأتي وتدَّعي بأن اليهود توقفوا كليةً عن فِلاحة أرض إسرائيل، مع غزو تيتوس(129) لأورشليم وفشلِ تمرد بوركخفا(130)،

فهذا معناه إظهار جهل تام بتاريخ بني إسرائيل (...) لقد ظل سكان القرى كما هم، رغم أعمال القمع ورغم المعاناة».

يجزم المؤلفان المتحمسان بشكل لا يقبل التأويل بأن «الفلاحين ليس أصلهم من المحتلين العرب الذين استولَوا على أرض إسرائيل وسوريا في القرن السابع الميلادي. لم يُبِدِ المنتصرون العربُ السكانَ المزارعين الذين وجدوهم في البلاد؛ بل طردوا الحكام البيزنطيين الأجانب فقط، ولم يَمَسُّوا السكان المحليين بسوء».

تجدر الإشارة مرة أخرى إلى أن: اليهود شكلوا أقل من ١٠٪ من سكان فلسطينا في العام الذي كُتبت فيه تلك الملاحظات. لقد أراد الزعيمان الصهيونيان إقامة دولة يهودية بكل ما في وسعهما؛ ولذلك كانا مستعدَّينِ للتواصل مع السكان المحليين الكثيرين من مواليد البلاد، لأنهما كانا على يقين بأنهم من ذرية العبرانيين القدماء. وحقيقةُ أنه ليس ثمة صلة ثقافية أو لغوية بين المستوطنين والسكان المحليين لم تكن ذات أثر كبير في نظرهما؛ إذ من المعروف أن هناك علاقة «إثنية» عميقة بين يهود العالم، وليس مجرد ثقافة علمانية مشتركة بينهم.

في عام ١٩٤٨ تخلى بن جوريون وبن تسفي عن موقفهما السابق وعادا إلى الأسطورة النصرانية - الصهيونية بشأن اجتثاث الشعب اليهودي في بداية التقويم الميلادى (٧٠م)، بعد أن أصبح عدد المستوطنين الصهاينة أكثر من ثلث سكان البلاد، وبعد أن ثار السكان الأصليون الذين لم يُدركوا، بسبب جهلهم الشديد، كُنهَ العلاقة «الإثنية» مع أولئك الذين استوطنوا أرضهم، مرارًا وتكرارًا (في ١٩٢١ وفي ١٩٢٩ وفي ١٩٣٦). أصبح عرب فلسطينا عنصرًا أجنبيًا تسلل إلى البلاد بشكل تعسفي قبل فترة وجيزة فقط، ويتعمد إعاقة عودة الشعب المنفي إلى وطنه.

لم يكن بن غوريون وبن تسيفي الوحيدَين اللذين اعتقدا بشكل يقيني تام نسبيًا أن السكان المحليين في غالبيتهم من نسل السكان القدامى لـ «شعب إسرائيل». والحق أن تفكير دوف بار بوروخوف، المنظِّر الصهيوني اليساري المهم، ولا يسرائيل بيلكند، أحد أوائل المستوطنين الصهاينة الذين وصلوا إلى فلسطينا، لم يختلف عن تفكير بن جوريون وبن تسفي؛ لقد وحَّد التمركز حول العرق كُلًا من اليمين واليسار. ولكن كيف يمكن تعريف مَن هو اليهودي على أساس «عرقي» وليس على أساس ثقافي - لغوي؟ إذ لم ينجح النازيون أيضًا، في بناء صورة

تركيبية للملامح اليهودية وفق معطيات جسدية (الدم، شكل الوجه وغير ذلك)، رغم كل نظرياتهم الـ «علمية» حول العرق، واضطروا في النهاية إلى الاعتماد على سجلات الطوائف.

هل تَبقَّى للصهيونية، التي ظلت تكرر الادعاء بأن اليهود شعب أو حتى شعب - عرق، هل تبقَّى لها الدينُ وحده في النهاية - بوصفه سجلًا بيروقراطيًا، وليس إيمانًا إلهيًا - معيارًا وحيدًا للهوية يمتلك القدرة على تعريف من اليهودي؟

من دون خيار، وحتى قبل الإعلان عن إقامة دولة إسرائيل، وَعَدَ بن غوريون - على الرغم من كونه ملحدًا عتيدًا - التيارَ السياسيَ الديني المحدود والضعيف في ذلك الوقت؛ بمنحه السيطرة الكاملة على جميع قوانين الأحوال الشخصية في الدولة المستقبلية. منذ عام ١٩٤٨ حتى كتابة هذه الكلمات، لم يُسمح -على سبيل المثال- بالزواج المدني في إسرائيل؛ لا يمكن لليهودي أن يتزوج من غير يهودية، وبهذا قل خطر الاندماج في إسرائيل، الواقعية والمتخيلة، بشكل كامل تقريبًا.

لكن ذلك لم يَحُلَّ المعضلة الصعبة: مَن هو اليهودي من الناحية القانونية؟ في الخمسينيات من القرن الماضي، طُرح اقتراح مَفاده أن يُعَدَّ يهوديًا كل شخص يعتبر نفسه يهوديًا؛ لكنه سرعان ما سقط لكونه غير عملي في بلد جاذب للهجرة يرتفع فيها مستوى المعيشة بوتيرة سريعة. كان الخوف من الزواج المختلط حاسمًا أيضًا، وبعد عقد من التخبطات تقرر اعتماد المبدأ الديني فقط بصورة نهائية قطعية؛ فاليهودي هو «من وُلد لأم يهودية أو من تهوَّد ولا ينتمي لدين آخر».

يستند قانون العودة، الذي يتيح لـ «يهودي» أن يأتي إلى إسرائيل وأن يتجنَّس بجنسيتها بصورة تلقائية، إلى هذا المعيار الديني حتى يومنا هذا.

تعريف اليهودي غير المتدين

لكن كثيرين لم يكونوا راضين عن أن تكون السمة الوحيدة التي تحدد من هو اليهودي - خاصة إذا كان هذا الشخص إنسانًا غير مؤمن - علامةً دينية فحسب. وظَّف مجموعة من الأطباء والعلماء الصهاينة، قبل قيام الدولة وبعدها مباشرة، كل مواهبهم «العلمية» لإظهار أن لليهود تفردًا بيولوجيًا يميزهم عن الشعوب التي عاشوا بينها، وذلك لليهود دون سواهم. لقد انطلقوا جميعًا من نقطة افتراضية

تؤكد بأن اليهود نُفوا وتشتتوا في بداية التقويم النصراني، وكل ما بَقِي الآن هو تحديد المعطيات والحقائق البيولوجية التي تتناسب مع هذا التاريخ الذي درسوه.

لقد حاولوا في البداية إثبات ذلك من خلال أمراض وراثية؛ أي تحديد الأمراض المميزة لليهود فقط، أو التي تميزهم بشكل خاص. وبالفعل وُجدت عدة أمراض من هذا القبيل، لكن السم يكمن في الدسم. لم تكن الأمراض الشائعة في أوساط يهود شرق أوروبا (مثل تاي ساكس) هي الأمراض ذاتها التي عُرفت في أوساط يهود المغرب مثل (PCCA2)؛ كانت الأمراض المتوارثة ليهود العراق (على سبيل المثال مرض الفافيزم) مختلفة تمامًا عن أمراض يهود ألمانيا. ولهذا سرعان ما انهارت محاولة الحصول على دليل على وجود شعب عرق يهودي وفق أمراض وراثية، وتركت «العلم» الصهيوني في حيرة.

من دون خيار تُوجّه الباحثون إلى بصمات الأصابع، وأيقنوا كذلك أن مسألة تجميع بصمات أصابع اليهود ومقارنتها ببصمات أصابع الغرباء لن ينتج عنه أي نتائج إيجابية. لم تكن لأحفاد الصيارفة الألمعيين والمُقرِضين الربويين - الذين قلّبوا صفحات كتب التلمود بلا كلل، ولذلك لم يكن لديهم وقت للعمل في الزراعة - بصمات أصابع خاصة. لا يُعرف ما إذا كانت قد أُجريت بحوث في إسرائيل حول بناء جمجمة اليهود وملامح وجوههم، ولكن جَرَت محاولات في مرحلة ما لإثبات أن أصل اليهود هو المكان الذي نُفوا منه قبل ألفَي عام وذلك عن طريق... كُريات الدم الحمراء.

كان البروفيسور حاييم شيبا هو الأبرز من بين الباحثين الكُثر الذين سعَوا إلى شرح علم الأحياء من خلال التاريخ والتاريخ من خلال علم الأحياء. كان شيبا كبير الضباط الأطباء في الجيش الإسرائيلي، ومدير عام وزارة الصحة، ومدير مستشفى كبير يسمى اليوم باسمه، ومؤسس قسم الطب في جامعة تل أبيب ونائب رئيسها. وكان مما أكد الطبيب والباحث الشهير في إحدى محاضراته المهمة:

«تشكل السمات الموروثة، عندما تُطبق الدراسة على شعب إسرائيل وشعوب أخرى منشؤها آسيا القديمة، مادة ممتازة للتقصّي عن تلك الشعوب (...) بهذه الطريقة لدينا فرصة استثنائية لدراسة هذه السمات في جميع الجاليات الإسرائيلية التي عادت إلى وطنها. كانت هذه الجاليات معزولًا بعضها عن بعض طيلة مئات

الأجيال وأكثر، وقد أتاحت مقارنة سمات هذه الجاليات بأبناء سائر الجاليات الأخرى وكذلك بالشعب الذي عاشوا في وسطه في منفى متواصل - أتاحت اكتشاف الاختلاف، وال «لقد اخترتنا»(131) المميز لليهود».

سعى شيبا إلى إنعاش الفرضيات الأساسية المركزية لمفكري وقادة الصهيونية - من موشيه هيس، مرورًا بماكس نوردو وحتى آرثر روبين. ونراه قد وظّف لسنوات عديدة أفضل ما في أبحاثه للَيّ عنق حقائق بيولوجية صغيرة وتحويلها إلى سردية واحدة كبيرة؛ فمثلًا إذا كان هناك فرق بين الأمراض الوراثية لليهود الأكراد واليهود الأوروبيين، فذلك مردُّه إلى حقيقة أن المنفى البابلي كان لعائلات بأكملها بينما كان المنفى الروماني لرجالٍ يهود تزوجوا من نساء غير يهوديات، تهوَّدن كلهن بالطبع، ومن هنا جاء الاختلاف البيولوجي.

في نهاية الستينيات، ومع تقدم البحث الجيني، أصبح شيبا مفعمًا بأملٍ أن تتضح جميع الأمور البيوكيميائية. لقد عبّر بكل حزن عن وجهة النظر القائلة بأن السياسة هي سبب التخلف النسبي في البحث الجيني: «تسبَّب كل من هتلر ونظرية العرق الألماني في نفور الثقافة الإنسانية من كل ما يمتُّ لنظرية الوراثة بصلة (...)»، وعليه فقد اعتقد أنه يجب إصلاح ذلك بالطبع.

وسرعان ما وجد تقاربًا وراثيًا بين يهودٍ من طوائف مختلفة وسكان سردينيا وكورسكا. لقد افترض أنه كان لبني إسرائيل وجود كبير هناك، حتى إنه أثار احتمالية أن يكون اسم نابليون بونابرت مستنسخًا من الاسم العبري «بن بورات»؛ ونظرًا لعدم وجود دليل على هجرة «يهودية» إلى هاتين الجزيرتين فقد اقترح البروفيسور شيبا اعتبار الفينيقيين، الذين وصلوا إلى كل مكان تقريبًا في البحر الأبيض المتوسط، أشباهَ يهود نظريًا (ادَّعى الباحث كذلك أنهم اختتنوا وقرأوا العبرية).

تتلمذ على يد شيبا كثيرٌ من التلاميذ، جيل من علماء الوراثة الإسرائيليين ومن بعدهم أمريكيون يهود انخرطوا في أبحاث الوراثة الجزيئية، وكانت البروفيسور بت شيفع بونا تامير من جامعة تل أبيب من أبرز علماء الجيل الجديد. وفي مقال لها مؤسس في عام ١٩٨٠، بعنوان **نظرة جديدة على جينات اليهود** أعلنت عالمة الوراثة في حماس عن منعطف مهم في هذا المجال: «في سنوات السبعينيات،

نُشرت أبحاث جديدة في مجال الأنثروبولوجيا الجينية لليهود، أبحاث تدور موضوعاتها حول تساؤلات من قبيل: «ما هو أصل الشعب اليهودي؟» و«هل هناك عرق يهودي فعلًا؟».

اختلاق فردوس يهودي

إذا كانت لا تزال هناك حواجز بين عام ١٩٤٥ ومنتصف السبعينيات قد تسببت في التردد في التصنيف العرقي الصريح لليهود، فإنها اختفت تمامًا بعد ذلك؛ فقد كُتبت مقالات وكتب كاملة وأطروحات دكتوراه، بشكل أساسي باللغة الإنجليزية، تسعى بكل قوتها لإثبات وجود عرق يهودي. وإلى جانب أقسام علم الوراثة في الجامعات الإسرائيلية، انخرط في المشروع علماء الوراثة من هيشيفا يونيفرستي(132) في نيويورك بوجه خاص.

كان من أبرز هؤلاء البروفيسور هاري أوستررر، الذي نشر كتاب **التراث تاريخ جيني للشعب اليهودي**، وجاءت «نتائجه» قاطعة: يختلف اليهود في مظهرهم عن غير اليهود لأنهم يشكلون مجموعة متجانسة تستوفي جميع الخصائص المتعلقة بالعرق. حافظ اليهود على وحدة الجينات منذ أن ارتحلوا عن أرضهم، بسبب تاريخ الزواج من العشيرة ذاتها، أي الزواج في إطار مجموعة مغلقة. صحيح أن محاكم التفتيش الإسبانية أضرَّت التجانس بشكل طفيف، لكن الضرر لم يكن كبيرًا. والأمر الذي لا يقل أهمية هو: أن علم الوراثة الجديد يثبت أن أصل غالبية اليهود من الشرق الأوسط: أو بتعبير أدق: ٨٠٪ من الرجال و٥٠٪ من النساء. وقد تهودت النساء جميعهن بالطبع طبقًا للشريعة اليهودية.

ولا عجب أنه في ذلك الجو الجيني الاحتفالي، خرج بنيامين نتنياهو، رئيس الوزراء الإسرائيلي، في عام ٢٠١٦ بتصريح أحدَثَ أصداءً في وسائل الإعلام. أجرى شقيقه فحص الحمض النووي في بيت هتفوتسوت بجامعة تل أبيب، وهي مؤسسة تتحرى شجرة الأنساب الجينية مقابل رسوم، واكتشف أن أصله اليهودي الليتواني ليس نقيًا. صحيح أنه سليل علّامة فيلنا(133)، لكن جينات مميزة ليهود إسبانيا أيضًا وُجدت في شجرة أنساب عائلته. لخص نتنياهو هذه النتيجة العلمية المهمة في تصريح: «هذا يعني أن كل بني إسرائيل إخوة، وأعتقد أن هذا أحد الدروس العظيمة التي اختُصَّ بها هذا الوطن، هذه المؤسسة: أن نرى أسرة شعب إسرائيل».

كان البروفيسور حاييم شيبا مُحِقًّا عندما ادعى أن العبء الأخلاقي السياسي للحرب العالمية الثانية أعاق البحث البيولوجي لفترة طويلة. وها هو التقدم في الزمن والبُعد عن تلك الحرب يزيل آخر الحواجز، وعاد «العلم» يحقق طفرات ويتقدم مرة أخرى.

عاد علماء الوراثة الصهاينة ليؤكدوا في استنتاجاتهم مسألة التقارب بين «الحمض النووي اليهودي» في العالم والحمض النووي الذي يميز سكان الشرق الأوسط من أرمينيا حتى اليمن، ومن إيران حتى مصر. لم تحاول أية دراسة مُقارَنة الحمض النووي للآلاف من الآثار القديمة الموجودة في أرض دولة إسرائيل بـ«الحمض النووي اليهودي» العالمي من أجل تحديد وتأكيد مستوى التقارب الجيني بينهما. حاولت دراسة هامشية واحدة فقط فحص التباعد الجيني بين السكان الفلسطينيين ويهود العالم، ووجدت أن الطفرات في الكروموسوم ص متشابهة عند الجانبين. لكن سرعان ما صُححت النتائج: «الإشكنازيون»، على عكس «السفاراديين»، أقرب إلى الويلزيين(134) منهم إلى العرب.

من دون جدوى، سيُحذر علماء وراثة إسرائيليون قلائل، مثل رفائيل فلك أو عيران الحايك، من تصنيف اليهود عرقيًا عن طريق اختلاق أصل جيني يهودي متوهَّم؛ إن الاحتيال العلمي الزائف الذي يتضمن في أساسه تعطشًا شديدًا لتوثيق الهوية العرقية القومية لليهود، سواء في إسرائيل أم في العالم، قوي للغاية، إنه يشبه بشكل مدهش دراسات أنثروبولوجيا الجسد التي أجريت في نهاية القرن التاسع عشر واستهدفت في حينه تعزيز الهوية وتفوق البيض في عصر الحكم الاستعماري المطلق.

وكما هو الحال بالنسبة لنظرية العرق المعادية لليهود قبل مائة عام، فإن نظرية الفردوس اليهودي في نهاية القرن العشرين أيضًا تواجه معضلة «علمية» محرجة ألا وهي أنه: لا يمكن حتى الآن تحديد مَن هو اليهودي ومن هو غير اليهودي بناءً على نتائج الحمض النووي.

حرب ١٩٦٧:

«حق الآباء»

«عدنا إلى أقدس أماكننا، عدنا كيلا نفترق عنها أبدًا. نمد إلى جيراننا العرب في هذا الوقت أيضًا يدًا للسلام، بل بعزم أكثر الآن».

موشيه ديان،

٧ يونيو/حزيران ١٩٦٧.

كانت هناك أسباب أخرى للزخم الذي بدأ في سنوات السبعينيات من القرن العشرين في موضوع تصنيف اليهود كعرق إضافة إلى مسألة الابتعاد عن الحرب العالمية الثانية، لم يكن أصل تلك الأسباب متعلقًا بشكل تام بتراكم المعرفة في مجالات البحث الجيني.

بعد حرب عام ١٩٦٧ وجدت إسرائيل نفسها تسيطر على نسبة كبيرة من السكان غير اليهود لا تستطيع الانفصال عنهم بقوتها الذاتية بأي حال من الأحوال، خاصة بسبب أسطورة أراضي الوطن القديم. وهؤلاء السكان الفلسطينيون، الذين تشكل لديهم وعي وطني متطور منذ بداية الستينيات، إضافة إلى الفلسطينيين من مواطني إسرائيل يمثلون نحو نصف من يعيشون بين البحر والنهر (نهر الأردن). ومن أجل مواجهة هذا الشعب الأصلي اضطرت جميع آليات المعرفة الإسرائيلية التأريخية، والأثرية، والبيولوجية أن تتجند، أكثر مما في الماضي، لإثبات أن أصل يهود العالم مشترك وأنهم يشكلون أمة واحدة، نُفيت قبل ألفي عام وأن حقها في «أرض إسرائيل» لا جدال فيه.

وعلى سبيل المثال، إذا كان الطالب حتى الخمسينيات قد درس في المرحلة الثانوية في إسرائيل شيئًا عن مملكة حِمير اليهودية، فإن أي طالب تخرج في مدرسة ثانوية لا يعرف اليوم على الإطلاق اسم المملكة اليهودية التي كانت تقع في جنوب شبه الجزيرة العربية. وإذا كان وزير التعليم الإسرائيلي، في أوائل الستينيات، قد دأب على المجاهرة، كما ذكرنا آنفًا، بأن أصل غالبية يهود بولندا وأوكرانيا وليتوانيا يعود إلى مملكة الخزر، فإن هذه المملكة اليهودية تُعد اليوم،

ومن دون إجراء أي بحث جديد، اختلاقًا شريرًا يستغله كارهو إسرائيل. وفيما يتعلق بأصل غالبية يهود إسبانيا المسلمة فإن الاعتقاد الصهيوني يذهب إلى أنهم ارتحلوا ووصلوا إليها منذ ما قبل التقويم الميلادي.

منذ إقامة دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ ظل «نفي الشعب اليهودي» أسطورة فاعلة ومهيمنة تُوحد المثقفين والعامة على حد سواء. لكن منذ عام ١٩٦٧ عُدَّ أي انحراف عنها كفرًا بواحًا في أحسن الأحوال وموقفًا «معاديًا للسامية» في أسوئها. وإذا كان أي «شخص من الأغيار» قد ادعى في نهاية القرن التاسع عشر أن اليهود عرق نُظر إليه بوصفه ميَّالًا لكراهية اليهود، فإن مَن يزعم في نهاية القرن العشرين بأن اليهود كانوا جاليات دينية متنوعة طيلة التاريخ وليسوا شعبًا عرقًا أجنبيًا يجب أن يُنظر إليه بوصفه كارهًا لليهود من الطراز الأول.

تأسست إسرائيل منذ البداية -كما هو معروف- بوصفها دولةَ الـ«شعب اليهودي» وليس بوصفها دولةَ جميع مواطنيها، صحيح أن الأقلية العربية نالت حقوقًا مدنية وسياسية؛ إلا أنه كان واضحًا لهذه الأقلية منذ البداية أن الدولة التي تأسست ليست لها تمامًا، وليس بها أي رمز أو علم يمكن أن يتعاطف معها أو يستهدف احتواءها أيضًا. إذا كان بإمكان الفرنسي اليهودي أن يُنشد «لامارسييز»(135)، وأن يشعر بأنه جزء من القومية الفرنسية، وإذا كان بإمكان الأمريكي اليهودي أن يُنشد «الراية الموشاة بالنجوم»(136)، وأن يتيقن أنه جزء من الأمة الأمريكية؛ فإن هذا الشعور الوطني الأساسي في النشيد القومي (الإسرائيلي) لا يمس وجدان الإسرائيلي الفلسطيني. من شأن «نشيد الأمل»(137) أن يُثير مشاعر انتماء لدى مواطني إسرائيل من اليهود فقط (سيشعر أزواجهم من غير اليهود أيضًا بعدم راحة حيال كلمات النشيد).

كان من الممكن حقًّا أن تمثل الظروف الخاصة في أواخر الأربعينيات، بما فيها من مئات الآلاف من اليهود المشردين بلا وطن، ذريعة لتلك الخطوة الشاذة وغير الديمقراطية. إلا أن تبلور الشعب الإسرائيلي على مر السنوات، هذا الشعب الذي طور لغة خاصة به وثقافة علمانية زاخرة وأصيلة، كان من المفترض أن يمنحه ثقة ذاتية كافية لتخفيف حدود عزلة الاستعلاء العرقي وفتحها أمام تعايش بين جميع مواطني إسرائيل.

حق منذ الميلاد

غير أن توسع إسرائيل بعد ١٩٦٧، وإدراجَها عددًا كبيرًا من السكان الفلسطينيين تحت سلطة إسرائيلية مباشرة، كما ذكرنا سابقًا، قَضَيا على كل فرصة لتطوير عملية اندماج جديدة من هذا النوع؛ إن الاستيطان (أو الاستيطان بمفهومه الديني) داخل الأراضي الإسرائيلية، مع الحفاظ على الأصل اليهودي، الذي جرى داخل (حدود) إسرائيل بين الأعوام ١٩٤٨ و١٩٦٧، قد توسع منذ ذلك الوقت ليشمل الأراضي المحتلة حديثًا أيضًا، وهي عملية أسهمت بشكل أكبر في تشكل طبقة مؤثرة أخرى في صياغة قومية فلسطينية تدرك تمامًا أن المشروع الصهيوني سلبها حقوقها الأساسية.

أدرك قادة إسرائيل جيدًا أنهم غير قادرين على الاستمرار في السيطرة على «أرض إسرائيل» بكاملها وعلى السكان المحرومين من جميع الحقوق المدنية والسياسية بالاعتماد على الثقل والقوة الديموغرافية لشعب إسرائيلي صغير، رغم قوته العسكرية المطلقة. كان على الجاليات اليهودية في العالم توظيف كل ثِقلها، أكثر من أي وقت مضى، كجماعات ضغط موالية لإسرائيل في أروقة الحكومات ووسائل الإعلام الغربية.

لم يعد هدف الصهيونية الرئيسي منذ ذلك الحين، أكثر مما كان عليه الحال في الماضي، تحقيق السيادة للمزيد والمزيد من اليهود على أنفسهم لإنقاذهم من الكراهية التاريخية، وإنما إخضاعهم للسياسة الإسرائيلية، خاصة فيما يتعلق بالتطلع المنفلت لدولة إسرائيل إلى التوسع في الأراضي.

اتضح أن أسطورة شعب العرق اليهودي بمثابة مادة لاصقة ذات فاعلية كبيرة في ربط مصير يهود العالم بمصير دولة إسرائيل. منذ ذلك الحين تَمثَّل الجهد الأيديولوجي الحاسم في توطيد الروابط الشعورية والمعرفية لديهم بها.

لفهم هذا الجو الجديد في الثقافة الصهيونية، يمكننا الاستشهاد بمشروع «تجليت» (اكتشاف)(138) كمثال. اسم هذا المشروع باللغة الإنجليزية هو (Israel Birthright)، ويهدف إلى تعليم «حق الآباء» أو «الحق بالولادة» أي حق يهود العالم في إسرائيل. كان المبادر به هو يوسي بيلين، اليساري الصهيوني الذي

شغل منصب نائب وزير الخارجية الإسرائيلي أيضًا، وبدأ المبادرة عمليًا في عام ١٩٩٩. وصل التمويل من الحكومة الإسرائيلية، والوكالة اليهودية ومن رأسماليين يهود حول العالم. كان الهدف المعلَن هو تعزيز العلاقة بين الأجيال الشابة في «المنفى اليهودي» ودولة إسرائيل. ودُعي من أجل ذلك، شباب يهودي لزيارة إسرائيل ولإقامة قصيرة فيها على نفقة منظمي المشروع. وصل ما بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠١٩، ٦٥٠ ألف شاب من ٦٦ دولة مختلفة، ٨٠٪ منهم من الولايات المتحدة.

كان غالبية الشباب طلابًا، وقد التقَوا بشكلٍ خاص في إسرائيل مع طلاب محليين ومع ضباط وجنود مختارين من الجيش الإسرائيلي. تضمنت خطة الزيارة جولة في البلدة القديمة في القدس، والحائط الغربي، ومتحف ياد فاشيم(139)، ومتسادا(140)، ومتحف بيت هتفوتسوت في جامعة تل أبيب (حيث أمكنهم إجراء اختبار الحمض النووي اليهودي)، وبالطبع زيارة قواعد الجيش الإسرائيلي وكيبوتسات. كان البرنامج يتضمن حتى عام ٢٠١٧ لقاءات مع مواطنين عرب أيضًا؛ لكن تم إلغاؤها.

بغض النظر عن تعزيز الدعم والتعاطف مع إسرائيل، عُدَّ النضال الشاق ضد الاندماج من بين الأهداف المعلنة لـ (Israel Birthright). وجدت دراسة أُجريت في مركز كوهين للدراسات اليهودية الحديثة في جامعة برانديز أن احتمالية زواج المشاركين في المشروع بيهود كان أعلى بنسبة ٥١٪ من احتمالية زواج الشباب اليهود الذين لم يشاركوا في رحلة «الجذور»؛ بمعنى أن المشروع قد أسهم بشكل مباشر إلى جانب مشاريع تعريف بالهوية مشابهة، في استمرارية وجود «الشعب اليهودي».

الحب بوصفه تهديدًا

التخوف العميق والمُعلَن من الزواج العابر للأديان موجود في الصهيونية على الدوام. وفي إسرائيل نفسها، مثلما ذُكر سابقًا، تلاشى التهديد منذ قيام الدولة من خلال منع الزواج المدني فيها، لكن الخطر لا يزال موجودًا في أنحاء العالم. في السبعينيات، على سبيل المثال، أعلنت جولدا ميئير، رئيسة الوزراء في ذلك الوقت، أنها ترى أن اليهودي الذي يتزوج امرأة غير يهودية ينضم إلى الستة ملايين، لقد كان الحب بين زوجين شابين في خيالها الخصب أشبه ما يكون بدخول أفران

الغاز. وقريب من ذلك ما أعلنه وزير التعليم في إسرائيل عام ٢٠١٩ من أن الاندماج مع الآخر هو في الواقع «محرقة ثانية».

في بداية القرن الحادي والعشرين تَنامى «خطر» الاندماج. بلغت نسبة زواج ذوي الأصل اليهودي من غير اليهود نحو ٦٠٪ في الولايات المتحدة وكندا، ونحو ٤٥٪ في فرنسا وبريطانيا، وبدأ التخوف العميق جِيال بدء اختفاء «شعب العرق اليهودي» يتسرب إلى الوعي القومي لصهاينة كُثر.

تَجدُر الإشارة أيضًا إلى أن ٨٠٪ من يهود روسيا (٧٥٪ من يهود الاتحاد السوڤييتي السابق) متزوجون من غير يهود، وهي حقيقة سببت توترات كثيرة في إسرائيل مع هجرة بعضهم إليها في التسعينيات (أولئك الذين خالَفهم الحظ لأنهم وُلِدُوا لأم يهودية مُسجَّلون في وزارة الداخلية الإسرائيلية على أنهم يهود، أما أولئك الذين وُلِدوا لأب أو جد يهودي فقط، وهم أكثر من ثلث مليون، مسجلون على أنهم غير يهود).

منذ التحرُّر، بدأ «اندماج» اليهود في أوساط الأمم التي عاشوا بينها. كان

الاندماج ثقافيًا وعلمانيًا؛ لكنه كان مصحوبًا في بعض الأحيان بالزواج من غير الطائفة. غير أن كراهية اليهود الشديدة في القرن التاسع عشر أبطأت هذه العملية، و«لم تشجع» أوروبا الدموية الاستيعاب، في النصف الأول من القرن العشرين، كما هو معروف.

لكن زواج ذوي الأصول اليهودية من غير اليهود تَزايَدَ في نهاية القرن العشرين وفي القرن الحادي والعشرين؛ والأدهى أنه ليس ثمة مكان في العالم ليس بمقدور من يُعرِّفون أنفسهم على أنهم يهود الهجرةُ منه إلى إسرائيل، ومع ذلك أصبحتِ الهجرة إليها سلبية أكثر وأكثر. يعيش أكثر من ٨ ملايين ممن يُعَدُّون يهودًا خارج إسرائيل، حتى وقتِ كتابة هذه الكلمات، وانضم إليهم أكثر من مليون إسرائيلي (يعيش في إسرائيل نفسها ٦.٥ مليون مواطن مُسجَّلين على أنهم يهود).

تُرى ما الأسباب المحتمَلة لهذا الوضع الديموغرافي الثقافي الذي لا يتوافق مع الرؤية الصهيونية؟ أحدثَ شيء ما لرغبة اليهود في أن تكون لهم سيادة على أنفسهم في دولة يهودية؟ أم لم تكن هويتهم الشخصية كشعب عرق غريب ومختلف مستقرة قطُّ مثلما اعتقد أعداؤهم؟

ربما لم تعد كراهية اليهود تحديدًا كما كانت عليه في السابق؟

هل انحسرت الكراهية التقليدية لليهود؟

«تؤمن الكنيسة أنَّ يسوع، مصدر طمأنينتنا، أصلح بين اليهود وغير اليهود عن طريق الصليب، ووحَّدهما بنفسه».

نوسترا أتاتا [في زماننا](141)،

المجمع الفاتيكاني الثاني، ١٩٦٥،

كراهية اليهودية ظاهرة تاريخية، ومثلما وُلدت في الماضي وتغيرت على مر السنين، فإن هناك احتمالية لانحسارها، وربما نقول، إذا أصررنا على التفاؤل، إنها ستنتهي يومًا ما. لكن قبل أي محاولة للإجابة عن السؤال الصعب فيما يتعلق بحال كراهية اليهود اليوم، تجدر إضافة بضع كلمات حول كراهية اليهود في المناطق التي أتينا على ذكرها حتى الآن بإيجاز.

تتبعت هذا المقالة الخطوط العريضة لولادة كراهية اليهود في حوض البحر المتوسط ثم نشأتها في قارة أوروبا حتى العصر الحديث. ذُكر كل من الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة بإيجاز في هذا العرض؛ بيد أن تطور كراهية اليهود وانحسارها في هاتين المنطقتين على وجه التحديد قد يساهمان في توضيح طبيعة ومكانة هذا العداء اليوم.

لم تختلف الصورة الذهنية لليهودي في تاريخ الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية اختلافًا جوهريًا عن نسختها في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية ومن بعدها الكنيسة البروتستانتية. واصلت الكنيسة الروسية الأرثوذكسية العداء التقليدي الذي ترسَّخ في أوساط الأرستقراطيين والمثقفين والفلاحين الروس. أدى وجود شعب اليدييش في النطاق الجغرافي الكبير، الذي يضم بولندا وليتوانيا، إلى زيادة الاحتكاك بين السكان النصارى واليهود، ومن ثم ترسخت الكراهية الشعبية لليهود. لم تُدرج مسألة مساواة اليهود في الحقوق في أجندة روسيا القيصرية على الإطلاق، ولم تُكتسب المساواة إلا مع مجيء الثورة عام ١٩١٧.

تخبط البلاشفة، الذين استولَوا على السلطة، لفترة طويلة بشأن ما إذا كان ينبغي منح اليهود حقوقًا قومية، إضافة إلى الحقوق المدنية والسياسية. على

سبيل المثال، اقترح أناتولي لوناشارسكي، مفوض التعليم في سنوات العشرينيات، تحويل شبه جزيرة القرم إلى جمهورية سوفييتية يهودية؛ رُفض الاقتراح، ونُصح شعب اليدييش، لاحقًا، بممارسة استقلاليته الذاتية اللغوية والثقافية في بيروفيجان(142) البعيدة والمنعزلة. وهكذا كان من الممكن قمع الثقافة اليديشية في سائر الجمهوريات السوفييتية.

لكن الصورة الذهنية الشائعة لاضطهاد اليهود في عهد ستالين هي إحدى النتائج البارزة للحرب الباردة. ربما كان ستالين مُترعًا بأفكار مسبقة ضد اليهود، لكن لا يمكن بأي حال من الأحوال مقارنة نظام حكمه بنظام حكم هتلر وبيتان(143) وببلدان أوروبا الشرقية خلال الحرب العالمية الثانية. كان موقفه تجاه اليهود أشبه ما يكون بموقف ماكسميليان روبسبير(144) في نواحٍ كثيرة. لقد عارض اليهودية بكل تأكيد؛ لكنه رأى الكنيسة المسيحية عدوًا أكثر أهمية.

لم تُترجِم رؤيةُ ستالين الشمولية وتعامله القاسي والوحشي مع خصومه السياسيين، وأعدائه المتوهَّمين وغير المتوهمين الآخرين أيضًا، في صورة اضطهاد لليهود قطُّ بسبب أصلهم. وإذا كان أيضًا قد استغل العداء الشعبي تجاه اليهود للنَّيل من معارضيه لفترة قصيرة، وإذا كان قد انتابه أيضًا ارتياب مرضي وهمي من اليهود في أواخر أيامه، فإنه يمكن القول في المحصلة التاريخية الشاملة بأن نظامه الاستبدادي على وجه التحديد كَبَح بقوة بالغة جماح الكراهية الممتدة تجاه اليهود، وشجَّع، ولو بالإكراه، اندماج شعب اليديش في الثقافة والسياسة السوفييتيتين.

لا يجب نسيان أن العديد من اليهود لم يُعَدُّوا مِن بين قادة الثورة الرواد فحسب؛ بل عُدُّوا لاحقًا من بين زعماء نظام الرعب السوفييتي كذلك. كان جنريخ ياجودا(145)، على سبيل المثال، أحدَ أشدِّ المُوَالين لـ ستالين، ولذلك أصبح نائب رئيس تشيكا (الشرطة السرية) في سنوات العشرينيات وقائد الـ إن. كيه. في.دي(146) في منتصف الثلاثينيات. كان لازار كاجنوفيتش أحد المقربين كثيرًا إلى ستالين، ووزيرًا في حكومته وعضوًا في المكتب السياسي للحزب الحاكم. ونظرًا لأنه كان أيضًا سكرتيرًا للحزب الشيوعي في أوكرانيا خلال فترة

التأميم الزراعي الحثيث، فقد كان ينظر إليه على أنه أحد الأشخاص الرئيسيين المسؤولين عن موت ملايين الأوكرانيين جوعًا في أوائل الثلاثينيات. كان كل من لازار كوجان وماتفي بيرمان ويسرائيل بلاينر المديرين الرئيسيين الثلاثة الذين تعاقبوا على حكم منظومة معسكرات الجولاج(147) من عام ١٩٣٠ وحتى نهاية عام ١٩٣٨ - أبناءَ عائلاتٍ يهوديةٍ.

لم يكن لأدولف هتلر ولا لفيليب بيتان وزراء أو رؤساء شرطة سريون من أصل يهودي. خلال الحقبة الشيوعية في الاتحاد السوڤييتي اندمج شعب اليديش في الشعوب الأخرى؛ بل أخذ في الانصهار معها في كثير من النواحي، خاصة في الثقافة الروسية. لذلك في عام ١٩٩١، مع سقوط النظام، تزوج ٨٠٪ مِن اليهود مِن غير يهود، ولم يعد أحد منهم تقريبًا يمارس أي طقوس دينية يهودية. يمكن النظر إلى هذا الاندماج بين الطوائف على أنه أحد أهم الدلائل، إن لم يكن الدليل الوحيد، على انحسار الكراهية التقليدية لليهود.

لم تكن الهجرة إلى إسرائيل في الثمانينيات والتسعينيات، قبل انهيار النظام السوڤييتي وبعده، نابعةً من ضغط شعبي معادٍ لليهود أو من قناعة داخلية قومية صهيونية مثلما حاول كثيرون طرحها؛ لقد كانت تلك الهجرة اقتصادية صرفة تقريبًا. فضَّل كثيرون من نسل أولئك الذين فشلوا في الهجرة باتجاه الغرب في بداية القرن العشرين، الهجرة في نهاية القرن نفسه إلى عالم اقتصادي واعد ومستقر ذي مستوى معيشي أعلى أيضًا. وصلت غالبيتهم إلى إسرائيل في النهاية بسبب سياسة إسرائيلية داهية وانتهازية فقط.

كراهية اليهود في الولايات المتحدة

كانت الأسباب الاقتصادية أيضًا هي ما دفعت شعب اليديش إلى مغادرة الإمبراطورية الروسية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، لكنها ليست الوحيدة. كانت الظروف المعيشية في النطاق الجغرافي لبعض البلدان والمدن الروسية التي سُمح لليهود بالعيش فيها خلال حكم القياصرة(148) لا تُحتمل، وزادَ عدمُ الاستقرار الاقتصادي في ثمانينيات ذلك القرن من تَدهوُر أوضاعهم بشكل أكبر. لكنهم لم يكونوا الوحيدين على شَفا المجاعة؛ فقد كان وضع المزارعين النصارى في تلك السنوات مُزريًا للغاية كذلك، وتعاظم الغليان في

أوساطهم. زادت الحكومة القيصرية من الدعاية المعادية لليهود، وحرَّضت علانية على ارتكاب مذابح ضدهم، من أجل تشتيت وتوجيه غضب الجماهير. مثَّل اغتيال القيصر ألكسندر الثاني عام ١٨٨١ ذريعة لشن هجمات ممنهجة بحق بعض الجاليات اليهودية، وبخاصة في أوكرانيا. منذ ذلك التاريخ وحتى عام ١٩٠٣ - العام نفسه الذي حدثت فيه المذبحة في كيشنيناو(149) وهو العام نفسه الذي نُشِرَت فيه **بروتوكولات صهيون** وثيقةُ الكراهية المعادية لليهود التي أَلَّفَتها الشرطة السرية للقيصر – لم يتوقفِ التحريضُ والدعوة إلى طردِ قتلة المخلِّص (يسوع) من أرض روسيا.

وبالفعل غادر ما لا يقل عن ٢- ٢.٥ مليون يهودي، وصلوا في النهاية إلى القارة الأمريكية خاصة إلى شمالها كما ذكرنا آنفًا. لكنهم لم يكونوا المهاجرين الوحيدين؛ فقد وصل كذلك إيطاليون وبولنديون وصينيون وآسيويون آخرون بأعداد حاشدة، لكنَّ «خط النهاية»، أي بلوغَ الاستيطان على أرض الولايات المتحدة الأمريكية منتهاه، حدَّدَ بداية الضغوط لوقف تدفُّق المهاجرين، وهي ضغوط زادت فور انتهاء الحرب العالمية الأولى.

سبقَ وقفَ الهجرة دعايةٌ عنصرية صارخة، كانت الكراهية الواضحة لليهود أحد مكوناتها. تنامت صور نمطية معادية لليهود في الولايات المتحدة على الدوام، كما هو الحال في أي مجتمع ركائزُهُ نصرانيةٌ. لكن من الصعب تحديدُ ما إذا كان العداء ليهود أوروبا الشرقية أكبر من العداء تجاه الإيطاليين الكاثوليك. يمكن القول بكل تأكيد: إنه كان أهون من ذلك الذي مورس ضد اليابانيين والصينيين؛ فقد خففت التعددية الثقافية التي طالما ميزت المجتمع الأمريكي من تبلور كراهية ممنهجة لليهود أو من ظهور أحزاب علنية معادية لليهود كتلك التي تنامت في القارة الأوروبية. بالطبع، صُنِّفَت جماعة كو كلوكس كلان(150) ومنظمات مماثلة اليهود على أنهم أبناء الأبالسة، ولم تنبذِ الثقافةُ الأمريكية بعضَ الكارهين لليهود من المشاهير، مثل قطب الصناعة هنري فورد أو والت ديزني، لكن كراهية «السود» والخوف منهم كانا أعمق وأكثر مغزى.

يجب ألا ننسى أيضًا أن المجتمع الأمريكي نشأ على خلفية إبادة جماعية. كان الاستيطان فيه أصوليًا منذ البداية، وكانت الزيجات مع السكان الأصليين نادرة،

على عكس أمريكا الجنوبية والوسطى. وقد أدت التجارة وتوظيف العبيد الأفارقة على نطاق واسع لاحقًا إلى تنامي الوعي بتفوق العرق الأبيض لسنوات عديدة، وأصبح التصنيف العرقي لغير البيض سمة رئيسية في تشكيل الهوية الأمريكية، حتى الستينيات من القرن العشرين على الأقل. «لحسن حظ» اليهود، أنهم غدُوا بيضًا؛ حتى إن تيارات مسيحية معينة ضمتهم تحت كنفها «الرحيم».

عمومًا، لم يكن القرن العشرون قرنًا معاديًا لليهود، منذ سنوات العشرينيات فصاعدًا على الأقل، في المجتمع السوفييتي والأمريكي على حد سواء. تراجعت كراهية اليهود في كِلَا المجتمعَينِ بشكل منهجي، مما أدى إلى زيادة الزيجات المختلطة فيهما تدريجيًا.

رغم تعاطف غالبية الجمهور اليهودي الأمريكي الشديد مع إسرائيل، فإن مستوى المعيشة في الولايات المتحدة وغياب كراهية جدية لليهود فيها لا يزالان يمثلان عاملين رئيسيين في مسألة عدم تنامي هجرة واسعة منها إلى الدولة القومية لـ «الشعب اليهودي» أبدًا.

كراهية اليهود في القارة العجوز

حدث انحسار كبير في كراهية اليهود، في أوروبا أيضًا. لكن هذه العملية التاريخية المهمة لم تبدأ في سنوات العشرينيات بالطبع، ولا حتى مع نهاية الحرب العالمية الثانية. في العقدين اللذين أعقبا انتهاء المعارك في ألمانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا وسائر الدول المحتلة، كان كثير من الناس ما يزالون يعيشون هناك، خاصة من الطبقات العليا، الذين تعاونوا مع القتلة. ومن ثم هُمِّشت إبادة اليهود في الوعي تمامًا، ولم تُولِها بعدُ المؤسسات الأوروبية الرسمية أهمية.

ربما يمكن التطرق إلى فيلم **ليل وضباب** كمثال؛ ذلك الفيلم المثير للإعجاب لآلان رينيه عن معسكرات الاعتقال. ذُكر اليهود في تلك التحفة الفنية في مناسبتين هامشيتين فقط، وحَذفت الرقابة كذلك لقطة الكاب لشرطي في معسكر اعتقال في فرنسا. لم تكشف كتب التاريخ قطُّ عن مدى الإجرام بحق اليهود وعن مدى التعاون معه حتى النصف الثاني من السبعينيات.

بالتأكيد لم تظهر منذ الحرب العالمية الثانية تقريبًا على الساحة العامة تعليقات،

أو نكات، أو تلميحات أو قصص تتوارى بين سطورها كراهية لليهود. لكن «آل روتشيلد»، على العكس من «اليهود البلاشفة»، ما يزالون مستهدَفين في الأحاديث العائلية، وفي نقاشات الصالونات، بسخرية لاذعة ضمنية أو بسخرية خفيفة يُنظر إليها على أنها مشروعة.

بدأ يحدث تغيير مهم في منتصف الستينيات في مسارين متصلين: تراجع الدين الكاثوليكي النصراني العام في أوروبا؛ حيث حدثت تغييرات هيكلية في مبادئه، ثم ظهور جيل جديد على الساحة العامة، لم ينخرط في «تجاذبات» الحرب العالمية الثانية.

قرر البابا يوحنا الثالث والعشرون، الذي أعرب عن ندم عميق على الموقف السلبي للكنيسة إزاء إبادة اليهود، أن يعارض بشكل مؤثر وبشجاعة منقطعة النظير الجفاء النصراني العميق لليهود. ففي عام ١٩٥٩ أمر بإزالة جملة (Perfidis Judaeis)، التي يمكن تفسيرها بـ: «اليهود الغادرون» أو «اليهود الكفرة»، من صلاة الجمعة العظيمة.

في «البيان الخاص بعلاقة الكنيسة بالديانات الأخرى»، المعروف باسم **نوسترا أتاتا**، الذي صيغ في المجمع الفاتيكاني الثاني بين الأعوام ١٩٦٢ و١٩٦٥، حُدد في البند الرابع المتعلق باليهود أنه لا ينبغي تحميلهم مسؤولية موت يسوع وأنه لا ينبغي إظهارهم كمقيتين وملعونين. في الواقع، لقد جمع المخلص اليهود والغرباء تحت لواء الصليب ووحّدَهم. بعد ما يَقرُب من ألفي عام، لم يعد النصرانيون واليهود كتلتين بشريتين متعاديتين، على الورق على الأقل.

وجدت هذه القرارات سبيلًا إلى قلوب العديد من المؤمنين، وهكذا تقلصتِ المعاداة التقليدية لليهود التي لا تزال موجودة في اليمين الكاثوليكي بشكل خاص. من المعروف أن التغيير بالنسبة للنصرانيين من كبار السن لم يكن سهلًا. لكن أجيالًا نصرانية جديدة اعتادت التغيير بسرعة.

لم يهتمَّ كثير من الشباب في ذلك الوقت تحديدًا بالنصرانية بدرجة كبيرة بقدر تعطشهم لتغييرات مؤثرة في حياتهم. في النصف الثاني من سنوات الستينيات بدأت موجة احتجاجات راديكالية تتصاعد في جميع جامعات الدول الغربية. من برلين إلى بيركلي، ومن مكسيكو سيتي إلى روما، جَرَفت الاضطرابات مئات الآلاف

وغيرت البنية الشعورية لجيل بأكمله.

لم تنتقل الكراهية الخَجولة لليهود التي كانت لدى آباء ذلك الجيل كميراث طبيعي. حدثت فجوة مهمة بين الأجيال فيما يتعلق بالوجود اليهودي، بين نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٦٧، عندما سَمَحَ الرئيس الفرنسي شارل ديغول لنفسه بأن يطلق على اليهود «شعبًا نخبويًا، واثقًا من نفسه ومتسلطًا»، وعندما دوّى هتاف عشرات الآلاف في مايو/أيار ١٩٦٨: «كلنا يهود ألمان» (لافتة تضامُن مع دانيال كوهين بانديت)(151). منذ ذلك الحين تراجع الازدراء والاحتقار عن الساحة العامة وأُجبرَا على الاختفاء في المقابر، وفي الأحاديث الحميمية والعائلية وفي كتابة الصلبان المعقوفة الشريرة في الليالي المظلمة.

ومع ذلك يحدث شيء غريب؛ فنحن نعيش اليوم في عالم، ربما باستثناء أوروبا الشرقية والعالم العربي، لا يجرؤ فيه أي سياسي ينساق خلف ناخبين، ويَخطُب فيه مقدم برامج تلفزيونية وُدَ المشاهدين، ويسعى فيه كل صحفي للاحتفاظ بجمهوره من القراء، على التفوُه ولو بتعليق واحد مُعادٍ لليهود. ولو حدث ذلك، فسوف يُنهي مسيرته العامة. لكنّ المُفَوَّضياتِ المركزية ما تزال تحذر من تعاظم «معاداة سامية».

إن ربط الكراهية الشعبية لليهود في الماضي بكراهية اليهود اليوم لا يشوه التاريخ تشويهًا تامًا فحسب؛ بل يرتكب جُرمًا في حق ضحايا الماضي ويشوه ذكرى المعاناة الحقيقية التي حدثت على مدار أجيال.

معاداة الصهيونية.. هل هي معاداة جديدة للسامية؟

«إذا كان «المعادي للسامية» في الماضي هو شخص كره اليهود، فإن «المعادي للسامية» اليوم هو شخص يكرهه اليهود».

(نكتة إسرائيلية من القرن الحالي)

أشعر بعدم ارتياح شديد في نهاية كتابة هذا المقال؛ إذ على الرغم من أن كراهية اليهود التي طال أمدها بدأت تضعف في العالم الغربي في رأيي، فإنه لا يمكن تلخيص تاريخها بأنغام «النهاية السعيدة».

في الخمسين سنة الماضية حدث شيء لا يمكن تجاهله أو إنكاره ولا زال يحدث؛ فكلما انحسرت الكراهية التقليدية لليهود وأصبح تصنيف اليهود بحسب العرق نادرًا وهامشيًا في أنحاء العالم، ازداد النقد والعداء تجاه دولة إسرائيل وممثليها.

وإذا كانت إقامة دولة إسرائيل في حد ذاتها في عام ١٩٤٨ قد أضرت كثيرًا بالسكان الأصليين، فإن الدول الغربية والاتحاد السوفييتي تقبلوها كأمر واقع. رغم أن الأمم المتحدة أشارت صراحةً إلى حق العرب الذين شُرِّدوا في العودة إلى ديارهم، فإن حقيقة أن إسرائيل لم يكن لديها استعداد لتنفيذ هذا القرار لم تُؤَدِّ إلى فرض عقوبات عليها، واعتاد العالم على نتائج الحرب ورضخ لها. كان الحديث يدور عن دولة للاجئين اليهود من الإبادة، وكان الضمير العالمي، خاصة الأوروبي تَخِزُهُ هذه المسألة كثيرًا.

لكن إسرائيل، مثلما ذكرنا سابقًا، تسيطر على مناطق آهلة بفلسطينيين آخرين وتقيم فيها مستوطنات يهودية بحتة (يعيش فيها عشرة بالمائة من مواطني إسرائيل) دون أن تَمنح سكان المكان الأصليين حقوقًا مدنية أو الحق في تقرير المصير. حوَّل هذا الوضع الـ«مؤقت» إسرائيل إلى دولة نظام شبيه بنظام الفصل العنصري على الأقل في جزء منها منذ ما يزيد عن خمسين سنة.

إن الوضع الذي استمر لنصف قرن ليس مؤقتًا؛ بل هو واقع تحول إلى وضع دائم تتعايش معه غالبية السكان اليهود الإسرائيليين براحة نسبية (إذا لم يستشرِ الإرهاب). سرعان ما اعتاد أحفاد المقهورين والمضطهَدين بالأمس على أن يكونوا

هم في الجانب القمعي والمضطهِد من التاريخ.

كان سلوك الدول العربية ماجنًا ومنافقًا بشكل عام إزاء هذا الوضع؛ فلم تقترن صيحات الانكسار إزاء المأساة الفلسطينية بتضامن جادٍّ وحقيقي ودائم تقريبًا. حتى الإسلام الراديكالي الدموي في العقود الماضية، الذي تبنى رؤى صاخبة معادية لليهود، لم يُبدِ سوى النزر اليسير من المشاعر الأخوية الحقيقية تجاه الفلسطينيين.

في مقابل ذلك كله، طوَّر اليسار المعتدل أو الراديكالي في العالم الغربي في السنوات الأخيرة، جنبًا إلى جنب مع حركات حقوق الإنسان، خطابًا نقديًا منهجيًا تزايدت حدته أكثر فأكثر كلما ترسخ الوضع الشبيه بالفصل العنصري وفشلت جميع المحاولات الدبلوماسية لتحقيق انسحاب إسرائيلي ما. بإمكان الحكومة الإسرائيلية إنجاز اتفاق سلام، لكن جميع حكوماتها، بما فيها حكومة رابين، أصرت على رفض تفكيك جميع المستوطنات والانسحاب إلى حدود عام ١٩٦٧.

الحجة المركزية للمدافعين عن إسرائيل هي أن الذين يعارضون سياساتها لا يفعلون ذلك لأسباب أخلاقية ولكن لأسباب تتعلق بـ «معاداة السامية». فهناك دول علاقتها بمواطنيها أكثر سوءًا من علاقة إسرائيل بالفلسطينيين، لكن الاحتجاج ضدها نادر ولا صوت له تقريبًا.

لكن إسرائيل، بخلاف دول استبدادية وديكتاتورية، تُعد دولة ديمقراطية ليبرالية، وهي تعُد نفسها كذلك وليست دولة تحتقر البشر الذين يعيشون تحت سيطرتها المباشرة وتسلبهم حقوقهم(152). أصبح دعم إسرائيل صريحًا بعد عام ١٩٤٨ بسبب الليبرالية والتعددية التي رعتها وحافظت عليها أيضًا، حتى وإن كان الأمر إشكاليًا دائمًا. منذ عام ١٩٦٧، بدأت هذه الصورة الإيجابية في التلاشي. أدى قمع السكان المحتلين إلى تمرد عنيف، كما هو الحال في أي نضال من أجل التحرر الوطني، وخَلَّف الإرهاب بدوره قمعًا أشرس وأكثر تكرارًا - وهو وضع يذكر للغاية بعصر الاستعمار «الكلاسيكي» الذي انتهى من العالم.

مثال على الكيل بمكيالين: عندما ضم الاتحاد الروسي في عام ٢٠١٤ شِبه جزيرة القرم في إجراء تعسفي وأحادي الجانب، منح السكان المحليين مواطنة متساوية،

وهم سكان يتحدث غالبيتهم اللغة الروسية (رضيت الغالبية العظمى منهم على الانضمام طواعية على ما يبدو). رغم ذلك لم تتردد الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي في فرض عقوبات اقتصادية على روسيا. لا تقدم إسرائيل مواطنة متساوية للفلسطينيين أبدًا، وليست مستعدة في الوقت نفسه للاعتراف بحقهم في تقرير المصير على أرضهم، ولا تزال جميع الدول الغربية تتعامل معها بسماحة منقطعة النظير.

فهل تُعد معارضةُ هذا الوضع والدعوة مشفوعة بإدانة إلى مقاطعة إسرائيل وفرض العقوبات عليها طالما أنها لا تنسحب من المناطق التي تسيطر عليها بالقوة - هل تُعد كراهية جديدة لليهود؟ وهل يُعَد التصور الذي ينشد رؤية إسرائيل داخل حدود عام ١٩٦٧ كجمهورية لكل مواطنيها الإسرائيليين، دون تمييز في الدين، أو الجنس أو الأصل، ويعارض رؤيتها كدولة تخص يهود العالم حصريًا، هؤلاء اليهود الذين يختارون بشكل صريح ألا يعيشوا فيها- هل يُعد ذلك كله كراهية لليهود؟

ومثلما أن الحاخام مناحيم مندل شنيئرسون (153)، الذي عارض هرتسل والحركة الصهيونية بكل قوته، لم يكن «معاديًا للسامية»، ومثلما أن ماريك إديلمان(154) عضو حركة البوند(155)، وأحد قادة جيتو وارسو(156)، الذي رفض بشدة الاستيطان في فلسطينا، لم يكن «معاديًا للسامية»، ومثلما أن الجمهور الأرثوذكسي في نيويورك وأورشليم الذي يعارض الصهيونية لأنه يرى أنها انتهاك لجوهر العقيدة اليهودية ليس «معاديًا للسامية»، ومثلما أن المثقفين ذَوِي الأصل اليهودي، في الماضي والحاضر، مثل ستيفن هاسيل، وهارولد بينتر، وماكسيم رودنسون، وإريك هوبسباوم، وبيير ويدلينكي، وتوني جادت، ونوعم حومسكي، وجوديث باتلر وغيرهم الكثير - ليسوا كارهين لليهود؛ فإن الفلسطينيين أيضًا الذين ناضلوا ضد حكم الدولة اليهودية ليسوا كارهين لليهود.

وسيكون من الشَخف أن نطالبهم بألا يكونوا معادين للصهيونية وهم يعيشون تحت احتلال واستيطان متواصل يُنفَّذ باسم الرؤية الصهيونية ويُرَى في الأماكن التي يقيمون بها وطنًا لـ«الشعب اليهودي».

من كراهية اليهود إلى كراهية الإسلام

دائما ما نشأت بالتأكيد، على هامش الاحتجاج ضد التوسع الإسرائيلي، كراهية لليهود ولا تزال حتى اليوم أيضًا، في أحيان مراوغة وفي أحيان أخرى أكثر سفورًا. يوجد في اليسار الراديكالي مَن يجدون في التظاهر ضد إسرائيل القمعية فرصة لترسيخ أحكام مسبقة ضد اليهود ورثوها عن آبائهم وأجدادهم. لكن كل تعميم شاملٍ يُشير إلى معاداة الصهيونية على أنها «معاداة جديدة للسامية»، تعميمٌ خطير قد يعيد إذكاء جمر الكراهية القديمة لليهود، ناهيك عن أنه تعميم أخرق.

لا يعني ذلك أن ورثة العنصريين القدامى أصبحوا معادين جُددًا لليهود. فأحزابُ اليمين المتطرف، الشوفيني والعنصري في أوروبا، باستثناء أحزاب هامشية حاقدة وخطرة، تَدعمُ إسرائيل بحماسة وتعتبرها نموذجًا رفيعًا للسلوك الصحيح تجاه العرب (وتجاه العمال الأجانب كذلك)؛ إذ يتحد اليمين الأوروبي المتطرف، من الإيطالي ماتيو سالفيني مرورًا بالمجري فيكتور أوربان، والهولندي خيرت فيلدرز وحتى البريطاني نايجل فاراج، في دعمه الساحق للدولة اليهودية.

حتى إن الفرنسية مارين لوبان طَردَت والدها من حزبها، وهو مؤسس الحزب، بسبب ازدرائه العلني والواضح لمصير اليهود في الحرب العالمية الثانية وذلك من بين أسباب أخرى، وأعلنت أن حزبها لن يقبل بين أعضائه من يعادي السامية أو من يدعو إلى مقاطعة إسرائيل.

من الصعب إنكار حقيقة أن كارهي الإسلام من الأوروبيين يَرَونَ في دولة إسرائيل حصنًا متقدمًا للعالم «اليهودي المسيحي» الذي يقف بكل قوة في مواجهة المد الإسلامي.

إنني أقف إزاء ذلك الواقع الشنيع في بداية القرن الحادي والعشرين تملؤني المخاوف. إذا كانت كراهية اليهود قد أفسحت مكانها لكراهية الإسلام بشكل جزئي، وإذا كانت كراهية الآخر مُوجَّهةً اليوم نحو «ساميين» آخرين بشكل أساسي - لأنه لم يعد هناك مهاجرون يهود فقراء تقريبًا ليناوشهم السكان الأصليون- فإنه لا يزال هناك احتمال مقلق لانتشار كراهية متجددة لليهود، ليس فقط في أوساط اليمين الراديكالي المسرنم ولكن في أوساط الضحايا الجدد للكراهية أيضًا.

ينتشر الجهل الذي تغذيه مواعظ بعض الإسلاميين المتطرفين، خاصة على الشبكات الاجتماعية في أوساط عدد غير قليل من المهاجرين العرب والمسلمين.

في أعماق ذلك الجهل، يُنظر إلى جميع اليهود ومؤسساتهم على أنهم ممثلو إسرائيل القمعية. وعندهم أن اليهودي الذي يعتمر قبعة في ضواحي باريس، هو نفسه الجندي الإسرائيلي الفظ المسئول عن القمع في الضفة الغربية.

وإذا كان هناك عدد غير قليل من اليهود، الذين يتمتعون بحقوق المواطنة والمساواة الكاملة في بلدانهم، يدافعون عن النظام القمعي الإسرائيلي ويبررون الإجحاف الأساسي في الدولة اليهودية بمبررات مختلفة، فإنه يجب الاعتراف بحقهم في فعل ذلك، وانتقادهم بضراوة في الوقت نفسه. سيما وأن كثيرًا من اليهود الآخرين يرفضون، بالتوازي مع ذلك أيضًا، سياسات الحكومة الإسرائيلية جملة وتفصيلًا، وربما تساهم مواقفهم الدؤوبة في منع مزيد من تدهور معاداة اليهود في دوائر عامة أخرى.

كراهية وتفكير نمطي

لم يُكتب هذا المقال لأسباب أكاديمية بحتة. واضح من قراءة الصفحات حتى الآن أنني لم أرغب في إضافة مقال آخر حول «معاداة السامية» أيضًا حتى لا يُستخدمَ المصيرُ المرير لأسلافي ذريعةً لأن أكون جزءًا من شعب يَضطهد شعبًا آخر اليوم. كتبتُ المقال بشكل أساسي للوقوف على أصول كراهية اليهود، وكذلك لاستيضاح سبب وجودها لفترة طويلة هكذا في الثقافة الأوروبية، التي تُعرِّف نفسها اليوم بوقاحة مؤلمة على أنها «يهودية مسيحية». والآن، في نهاية الكتابة، لست متأكدًا البتة من أنني فهمتُ تمامًا مجمل الأسباب التي أدت إلى الإبقاء على الكراهية طيلة فترة طويلة جدا من الزمن.

ومع ذلك، توصلت إلى نتيجة متشائمة مفادها أن ألبرت أينشتاين كان على حق عندما ادعى أن تفكيك الذرة أسهل من تفكيك الأهواء. إذا كان تشويه صورة الآخر وتغريبه دائمًا تقريبًا ما يمثلان جزءًا من بناء هوية جمعية والحفاظ عليها، فإن قلائل فقط هم مَن يستطيعون النجاة من ذلك. أضحى التفكير النمطي، الذي هو أساس التعريف الذاتي للجماعات البشرية - سواء في عوالم ما قبل الحداثة أم في العصر الحديث - اعتقادًا دينيًا، وطبقيًا، وقوميًا وعنصريًا بمساعدة النُخب المثقفة. قد تكون حدود الهويات الجمعية تعسفية وخيالية تمامًا، لكن وجودها مضمون طالما أنها تساهم في إسباغ وهم اليقين والأمان.

التفكير النقدي بشأن المعتقد، ومعارضة التقسيم التقليدي بين «نحن» و«هم»، إجراءان نادران واستثنائيان. وتاريخ العلاقة مع اليهود في الحضارة النصرانية خير دليل على ذلك. للأسف الشديد، يؤكد تعامل غالبية الإسرائيليين مع الأقليات التي تعيش بينها أو تحت حكمها العسكري هذا الاستنتاج أيضًا.

تقول سخرية التاريخ المحزنة: إذا كان من المعتاد المزاح في ألمانيا في الماضي البعيد والقول إن الفيلوساميين(157) هم في الواقع معادون للسامية يحبون اليهود، فلن نجانب الصواب أبدًا إذا اعتبرنا إسرائيليين عديدين اليوم من ورثتهم.

شكر

أود أن أشكر جميع أصدقائي الذين ساعدوني في تجويد وإتمام هذا المقال. خالص شكري إلى الدكتور يوناتان الشيخ والدكتورة نويت برئيل، ويوسي برنياع، ونوعا جرينبيرج، وآنا سيرجينكوفا، والدكتورة ميخال عوفر تسفوني. كما أود أن أشكر جميع العاملات والعاملين أيضًا في دار نشر ريسلنج، خاصة موراج سيجل، الذين بذلوا قصارى جهدهم لجعل النص متاحًا ومقروءًا.

أنا مدين لزوجتي فاردا بأكثر مما أستطيع التعبير عنه.

ملحوظات

١- لم يتعرض هذا المقال لكراهية اليهود في الحضارة الإسلامية إلا قليلًا بسبب قلة الخبرة في هذا المجال.

٢- لم أُضف أي مراجع إلى هذا المقال، الذي يعتمد بصورة جزئية على دراساتي السابقة ويلخصها، يمكن لمن يرغب في التحقق من دقة الاقتباسات الرجوع إلى كتبي الأخيرة، خاصة كتاب **اختراع الشعب اليهودي** (٢٠٠٨).

---

(1) انظر الكتاب المذكور بالعبرية، ص ١٨- ١٩.

(2) محمود درويش: **الأعمال الشعرية الكاملة** (عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠١٤)، المجلد الأول.

(3) محمود درويش، المرجع السابق.

(4) شلومو زَند، «إسرائيل عنصرية، لا أريد أن أكون يهوديًا بعد الآن»، **موقع جلوبس بالعبرية**، ١٢ أغسطس/آب ٢٠١٤.

(5) الييديشية، رطانةٌ تُحدِّث وكُتِب بها يهود شرق أوروبا، خاصة، حتى ظهور الحركة الصهيونية، وتبنِّيها رسميًا اللغة العبرية لغة رسمية للدولة اليهودية التي خُطط لإقامتها. هذه الرطانة خليط من لغات شتى: ألمانية وعبرية ولغات سلافية متنوعة. (المترجمان)

(6) أصل الكتاب مجموعة مقالات محررة. (المترجمان)

(7) صيغة في لغات أجنبية عديدة لاسم فلسطين. ظهرت للمرة الأولى لدى المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوت، ثم انتقلت إلى اللاتينية، وأصبحت صيغة معتمدة في الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الثاني الميلادي. (المترجمان)

(8) لا تتطرق هذه المقالة تقريبًا إلى كراهية اليهود في الحضارة الإسلامية بسبب نقص المعرفة في هذا المجال. (المؤلف)

(9) اللغات الأوسترونيزية هي أسرة لغوية تضم ما يقرب من ١٢٦٨ لغة، تمثل خُمس مجموع اللغات المعروفة في العالم. يتحدث بها سكان جنوب شرق آسيا وسكان من شرق أفريقيا

والأوقيانوس. (المترجمان)

(10) أحد زعماء التنظيم الصهيوني المُسمّى: «محبة صهيون». ولد عام ١٨٢١ وتوفي عام ١٨٩١ في بولندا. اشتغل بمهنة الطب. نشر عام ١٨٨٢ مؤلفه الشهير «الانعتاق»، الذي حلل فيه جذور ما يسمى بـ «معاداة السامية»، ودعا إلى إقامة تجمع وطني لليهود. كان هذا الكتاب سببًا في إقامة التنظيم الصهيوني: «محبو صهيون». (المترجمان)

(11) عالم اجتماع وفيلسوف يهودي فرنسي (١٩٠٥- ١٩٨٣). من النقاد اللاذعين للمجتمع الغربي ولسلوكه خلال فترة الحرب الباردة. (المترجمان)

(12) سفر من أسفار التوراة، يُقرأ في عيد البوريم أو المساخر. يحكي السفر قصة الملكة اليهودية، إستير، زوجة أحشويرش، ملك فارس، وكيف أنها استطاعت بمساعدة عمها، موردخاي، إنقاذ يهود الإمبراطورية الفارسية من مؤامرة دبَّرَها لهم الوزير الفارسي هامان. (المترجمان)

(13) لمزيد من الاطلاع على الفترات الزمنية التي كُتبت فيها أسفار التوراة، عامة، انظر مؤلفات كل من: د. محمد خليفة حسن، ود. أحمد محمد هويدي في نقد العهد القديم. (المترجمان)

(14) فترة زمنية في التاريخ الإنساني تبدأ من موت الإسكندر الأكبر عام ٣٢٣ قبل الميلاد وحتى انتحار الملكة الهلينستية الأخيرة، كليوباترا عام ٣٠ قبل الميلاد. وهي فترة انتشرت فيها الثقافة اليونانية في العالم غير اليوناني. (المترجمان)

(15) يحكي **سفر روت** أن قحطًا أصاب مملكة يهودا، فارتحلت أسرة يهودية من هناك إلى أرض مؤاب، وهناك تزوج أحد أبنائها، خليون، من فتاة غير يهودية تُدعى روت، ولما مات الزوج، وقررت الأسرة اليهودية العودة إلى موطنهم الأصلي في بيت لحم بمملكة يهودا، أصرت روت على العودة مع حماتها، ناعومي، وتهودت وقالت لها: «شعبك شعبي...». ثم تزوجت روت من يهودي آخر يدعى بوعز، هو جد الملك داود، بحسب السفر التوراتي. (المترجمان)

(16) نسبة إلى اسم الإله في اليهودية: يهوا أو بالعبرية يهوفا יהוה، وتشير التوراة إلى أن بني إسرائيل حين سألوا موسى –عليه السلام- عن معنى اسم الرب فكان جواب الرب على لسان موسى: «أكون ما أكون» אהיה אשר אהיה إهييه أشر إهييه. (المترجمان)

(17) يُسمَّون المكابيين أيضًا، وهم زعماء التمرد اليهودي ضد الحكم اليوناني في القرن الثاني قبل الميلاد. أقاموا كيانًا سياسيًا مستقلًا في أرض فلسطين. تزعَّم التمردَ متتياهو بن يوحنان، ثم من بعده أبناؤه: يهودا المكابي، ويوناتان، وشمعون. (المترجمان)

(18) مجموعة الشرائع والفتاوى اليهودية؛ أعدَّها وصنَّفها، بحسب الروايات اليهودية، الحاخام يهودا هناسي عام ٢٠٠م تقريبًا. تتضمن المشنا ركائز الشرائع الشفوية المتناقلة عبر

الرواية الشفوية على مر الأجيال؛ وهي مصدر الشرائع والقصص الديني المتضمن في التلمود. تنقسم المشنا إلى ستة مباحث: الزروع، والأعياد، والنساء، والأضرار، والقرابين، والطهارة. أما التلمود فهو شرح وتفسير للمشنا، وهناك تلمودان: البابلي والأورشليمي. الأول وضعه أحبار العراق في القرن الثالث إلى الخامس قبل الميلاد، وكُتب بالآرامية والعبرية. والثاني وضعه أحبار أورشليم في عام ٥٠٠ للميلاد تقريبًا، وهو مختصر عن البابلي، وكُتب بآرامية الجليل، وبه كثير من الكلمات اليونانية، يختلف عن التلمود البابلي في أسلوبه المختصر، وفي مضمونه، بل وفي بعض الشرائع. (المترجمان)

(19) أسرة أسست مملكة بعد موت الاسكندر الاكبر عام ٣٢٣ قبل الميلاد؛ في العراق، وآسيا الوسطى، وسوريا، وفلسطين، وأجزاء من بلاد فارس. كانت عاصمة المملكة تقع على نهر دجلة. (المترجمان)

(20) شعب سكن منطقة تسمى «أدوم» جنوبي أرض كنعان -فلسطين- كما ورد في **سفر العدد** بالتوراة؛ وتُستعمل كلمتا «أدوم» و«الأدوميون» كنايةً عن مملكة روما، وكناية عن الحكم المسيحي البيزنطي في الأدب اليهودي القديم لاحقًا. (المترجمان)

(21) مجموعة من القبائل العربية أو الآرامية، استوطنت منطقة البقاع اللبناني، وأقاموا مملكة في جنوب لبنان وتمددوا حتى الجولان ومنطقة الجليل الأعلى. ضمَّها أريسطوبولس الأول، أحد ملوك الحشمونائيين إلى مملكة يهودا في عام ١٠٣ تقريبًا قبل الميلاد.

(22) رئيس ما يسمى «السنهدرين»؛ أعلى هيئة شرعية يهودية قضائية، وكانت تتألف من ٧١ من كبار علماء اليهود في القرن الأول الميلادي وما بعده. (المترجمان)

(23) زميل شمعيا، ورئيس محكمة. من أسرة متهودة. (المترجمان)

(24) قائد عسكري يهودي، أحد زعماء التمرد اليهودي الكبير ضد الرومان. يَعدُّه كثيرٌ من اليهود بطلًا هامًا. (المترجمان)

(25) جماعة من المتطرفين اليهود في القرن الأول الميلادي، نادَوا بمحاربة الرومان حتى النهاية، ولاحقُوا اليهود الذين آثرُوا التعايش مع الرومان. (المترجمان)

(26) الترجمة العبرية للفقرة من **سفر متّى** ترجمة تأويلية، بمعنى أنها ترجمت الفقرة: «لتكسبوا دخيلًا واحدًا، ومتى حصل» إلى: «من أجل تهويد إنسان واحد ومتى تهَّود». (المترجمان)

(27) تجاهلَتِ الترجمة العبرية للفقرة من الإنجيل لفظة: «البار» واستعاضت عنها بضمير الإشارة: «هذا». (المترجمان)

(28) جاستن مارتر، المعروف أيضًا بالقديس جاستن، أو «الشهيد جاستن». المترجم الأول

لنظرية اللوجوس في القرن الثاني، وقد أعدم في روما مع بعض تلاميذه. (المترجمان)

(29) تمرد يهودي ضد الحكم الروماني وقع بين عامي (١٣٢- ١٣٥م) بقيادة شمعون بركوخفا، بحسب الروايات اليهودية. (المترجمان)

(30) لاهوتي نصراني بارز وأحد آباء الكنيسة (١٥٥- ٢٤٠م) عاش في قرطاج، ولعب دورًا مهمًا في بلورة اللاهوت النصراني في القرون الأولى للميلاد. (المترجمان)

(31) القديس أوغسطين (٣٥٤- ٤٣٠م): كاتب وفيلسوف من أصل روماني-لاتيني، يعد أحد أهم الشخصيات المؤثرة في المسيحية الغربية، وتعدّه الكنيستان الكاثوليكية والأنجليكانية قديسًا وأحد آباء الكنيسة البارزين ومؤسس المذهب الرهباني الأوغسطيني. (المترجمان)

(32) انظر في ذلك **سفر التكوين**، الإصحاح الرابع، الذي يفصل أمر العقوبة التي فرضها الرب على قابيل بعد قتله هابيل. (المترجمان)

(33) فكرة الخلاص من أركان العقيدة اليهودية، كما حددها الحاخام موسى بن ميمون. وهو مفهوم يعبر عن تطلع الفرد والجماعة إلى تحسين وضعهما. يرجع مصدر هذا المفهوم إلى رؤى الأنبياء اليهود في التوراة بشأن يوم الدينونة، والمعركة التي سيعقبها الخلاص. آمن أنبياء بني إسرائيل، بأن بني إسرائيل سيتطهرون من الشر وكذلك الشعوب الأخرى، بعد الخلاص، وبأن السلام والعدل سيسودان العالم. (المترجمان)

(34) ينطوي الوصف على مبالغة واضحة من جانب المؤلف، إذ تُجمع المصادر التاريخية على أن حدود مملكة حمير هو الجزء الجنوبي فقط من شبه الجزيرة العربية بمناطق اليمن الحالية. (المترجمان)

(35) مملكة قديمة موطنها شمال إثيوبيا. تدخلت في شؤون الممالك التي ظهرت في شبه الجزيرة العربية، ولاحقًا وسعت مجال حكمها وهيمنتها لتشمل المنطقة بأكملها عبر غزو مملكة حِمير. (المترجمان)

(36) اشتهرت بلقب: كاهنة البربر، وحكمت شمال إفريقيا لمدة ٣٥ سنة، وقد دانت على ما يبدو باليهودية. (المترجمان)

(37) الفيزيقوطيون إحدى جماعتين رئيستين تكوّن منهما القوطيون، مع النمساويين القوطيين. باستثناء هذه الحقيقة، لا يعرف أحدٌ شيئًا عن طبيعتهما وأصلهما ولا عن أصل ومعنى الاسم. (المترجمان)

(38) تطلق لفظة «الجمارا» على التلمود البابلي كله من باب إطلاق الجزء على الكل، وتطلق، بمعنى حصري، على الجدل وتفاسير الأحبار للمشنا. (المترجمان)

(39) أسفار قديمة لم تلحق بالعهد القديم لأن رجال الدين القدماء أهملوها في حينه. وهي أسفار لا تعترف الكنيسة البروتستانتية بقدسيتها، أما الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية فتنظر إليها بوصفها أقل قدسية. (المترجمان)

(40) كلمة تعني حصناً أو قلعة، وهي تحريف للكلمة العربية: جبل مَسعدة. تقول المصادر اليهودية إنها القلعة التي تقع غربي البحر الميت على قمة جبل تحصَّن فيه المتمردون اليهود على الحكم الروماني بعد سقوط القدس سنة ٧٣م. أصبحت رمزًا للبطولة والتضحية في الأدبيات اليهودية. وثمة شكوك حول هذه الأسطورة، حيث لم تعثر الحفريات في موقع القلعة على أدلة مُقنعة على انتحار المدافعين عنها بعد اقتحام الرومان لها، كما لم يُشِر أي مصدر تاريخي يهودي لهذا الحادث من القرون الأولى قبل الميلاد باستثناء كتاب المؤرخ اليهودي يوسيفوس فلافيوس لاحقًا. من جانب آخر تتعارض قصة انتحار المتمردين اليهود من المتدينين المتعصبين مع تعاليم اليهودية التي تُحرّم الانتحار. (المترجمان)

(41) أفراد من أصول ألمانية. وقد غزا اللومبارديون إيطاليا وأسسوا بها مملكة تسمى على اسمها حتى اليوم مقاطعة لومبارديا الإيطالية. (المترجمان)

(42) الأقواس من عندي. (المترجمان)

(43) فرية الدم أو تهمة الدم، تهمة أُلصِقت من جانب النصارى باليهود في بعض البلدان، اتُّهم فيها اليهود بخطف وقتل صبي نصراني في عيد الفصح وعجن فطير عيد الفصح بدمِه. يَنكر اليهود هذه التهمة ويَرَون أنها مَحض افتراء. (المترجمان)

(44) طائفة من اليهود تَعترف بالأسفار المدونة فقط، ولا تعترف بالتلمود والمشنا وغيرها من الأسفار التي تسمى بالتوراة الشفوية. تأسست في القرن الثامن الميلادي على أيدي الحاخام عنان بن دافيد. (المترجمان)

(45) النقاط الثلاث والفراغ موجودان كما هما في النص الأصلي. (المترجمان)

(46) حملة دامت عشرين عامًا أطلقها البابا إينوسنت الثالث للقضاء على ما عدته بدعة أفراد طائفة الكتارفي إقليم لونجدوك بجنوب وسط فرنسا. دعت حركة الكتاريين إلى العودة إلى الرسالة المسيحية المتمثلة في الكمال والوعظ بالإضافة إلى رفض المادية إلى حد الجوع، آمن أنصار الحركة بتناسخ الأرواح وبوجود إلهين أحدهما للخير وآخر للشر - في إقليم لونجدوك. (المترجمان)

(47) تمرُّد وقع في باريس في عام ١٣٨٢م واستمر نحو عام ضد السياسة الضريبية التي فرضها الملك الطفل شارل السادس ملك فرنسا وعمه الوصي فيليب الثاني. قتل نحو ١٦ يهوديًا في بداية التمرد. (المترجمان)

(48) اللوحان الحجريان اللذان نُقشت عليهما الوصايا العشر وتلقاهما موسى فوق طور سيناء. حطم موسى اللوحين بعد أن نزل من فوق الجبل ورأى بني إسرائيل يعبدون عجلًا ذهبيًا. ثم صنع فيما بعد لوحين على غرار الأولين، وُضعا في 'تابوت العهد'، وصارا رمزًا دينيًا يهوديًا. (المترجمان)

(49) المقصود بها ما يعرف باسم «العربية اليهودية»، وهي مؤلفات عربية لكنها كتبت بحروف عبرية. كتب بها الحاخام موسى بن ميمون معظم مؤلفاته، وكذا سعديا جاؤون الفيومي وغيرهما. (المترجمان)

(50) حركة إصلاحية إسلامية استهدفت في بداية الأمر توحيد المغرب الإسلامي، ثم تجاوزت المغرب وضمت شبه الجزيرة الأيبيرية وسيطرت على الأندلس بعد أن استنجد بها ملوك الطوائف لمواجهة زحف الممالك المسيحية القشتالية. وصل سلطان المرابطين إلى الذروة في السنوات العشر الأولى حيث توطدت دولتهم ثم تلتها فترة ركود ثم فترة من النكبات إلى أن قامت حركة الموحدين التي قضت على دولة المرابطين ودخلت العاصمة مراكش. لم يعهد عنهم مناصبتهم العداء لليهود، كما يزعم المؤلف. والدليل على أنها مزاعم مرسلة أنه لم يُشِر إلى وقائع محددة، مثلما أشار في حالات تعامل أوروبا النصرانية معهم. (المترجمان)

(51) فيلسوف ولاهوتي هولندي، من كبار الشخصيات في إنسانية عصر النهضة ومن رواد نقد التوراة، وأحد المبشرين بالإصلاح البروتستانتي بعد نقده المنطقي للنصرانية. (المترجمان)

(52) أديب وفيلسوف فرنسي، من مفكري التنوير. آمَن بأن الأدب هو السبيل إلى إحداث التغيير المجتمعي. عبرت كتاباته الساخرة والفلسفية عن نفوره من الكنيسة الكاثوليكية، ومن عدم التسامح، ومن الاستبداد. (المترجمان)

(53) من آباء الكنيسة الكاثوليكية. عاش الثلاثين عامًا الأخيرة من حياته في بيت لحم، وفيها عكف على ترجمة التوراة من العبرية واليونانية - التي تُعرف باسم الفولجاتا - كما وضع تفسيرًا للتوراة كان يسوع فيه حاضرًا بقوة في كل حرف من حروفه. (المترجمان)

(54) الإصلاح الديني في أوروبا في القرن السادس عشر، الذي ظهرت في أعقابه فرق نصرانية جديدة تمردت على سلطة الكنيسة الكاثوليكية، سواءً من خلال رفض عقائد مختلفة أم توجيه اتهامات لها بالفساد والتعفن. عُرف الإصلاحيون بالاسم: البروتستانتيون. (المترجمان)

(55) الماهيوية، نظرية تقدم الماهية أو الجوهر على الوجود، وهي بذلك نقيض الوجودية. وهي موقف فلسفي يقول بأن لكل شيء في الوجود ماهية، أي سمات تعطي للشيء ماهيته. (المترجمان)

(56) أي، اليهود، الذين يمارسون شريعة ختان الذكر. (المترجمان)

(57) الطعام الكاشير هو الطعام الحلال طبقًا للشريعة اليهودية. (المترجمان)

(58) أديب وفيلسوف ومفكر وموسوعي ألماني فرنسي. يُعرف بإلحاده وبمناهضته للدين، وبرؤيته المادية للحياة، وهي رؤية تجلت في كتابه **منظومة الطبيعة.** (المترجمان)

(59) فيلسوف فرنسي، من المبشرين بعصر التحضر في فرنسا. أسهم في كتابة الموسوعة الكبرى، الموسوعة العصرية الأولى، مع جان جاك روسو وفولتير ودى لامبر. سجن بسبب آرائه وانتقاده الثاقب للمجتمع ولنظام الحكم وبسبب دعوته إلى تأسيس مجتمع غير تابع للكنيسة، يخضع لقوانين العقل. (المترجمان)

(60) هكذا في النص العبري، ولا أدري، هل هو خطأ مطبعي، أم أن كانط يسمي كل من سكن أرض كنعان/ فلسطين بالفلسطينيين، سواءً أكانوا من السكان الأصليين، أم من الغزاة من بني إسرائيل - اليهود لاحقًا؟ (المترجمان)

(61) التعميد طقس أساسي في النصرانية. (المترجمان)

(62) الفولكيشية تيار عرقي قومي في الفكر والأدب والسياسة الألمانية منذ القرن التاسع عشر. تركز الفولكيشية على التجانس العضوي لدى الألمان. (المترجمان)

(63) وصف لأحداث عنيفة جرت ضد اليهود في ألمانيا عام ١٨١٩، جرى خلالها نهب بيوتهم، ومتاجرهم ومؤسساتهم الدينية والثقافية. لا أحد يعرف سبب وقوع هذه الأحداث. ويقال إن رعاة الأغنام في ألمانيا كانوا يستعملون كلمة «هيب هيب» لحث أغنامهم على دخول الحظيرة. (المترجمان)

(64) كنية المتحدثين بالألمانية والهولندية من رعايا الإمبراطورية الرومانية. واللغات التفتونية مرادف للغات الجرمانية. (المترجمان)

(65) هذه المقولة جزء من سطر شعري للشاعر اليهودي، يهودا ليف جوردون، شاعر مرحلة التنوير العبري في القرن الثامن عشر، اتخذها التنويريون اليهود آنذاك شعارًا لحركتهم. (المترجمان)

(66) ألفريد درايفوس. ضابط بالجيش الفرنسي، اتهم بالتجسس لصالح ألمانيا، وأدين بتهمة الخيانة، وحكم عليه بالنفي مدى الحياة إلى جزيرة الشياطين بالقرب من شواطئ أمريكا الجنوبية. لكن سرعان ما تشكلت برئاسة أخيه حركة من الساسة، والصحفيين، والمحامين لتبرئته. كان لهذه القضية تأثير على تيودور هرتسل، الذي كرس اهتمامه منذ ذلك الوقت للمسألة اليهودية في أوروبا. (المترجمان)

(67) صك المفكر ناتان بيرنباوم هذا المصطلح عام ١٨٩٠ لوصف حركة «أحباء صهيون». وحين شارك بيرنباوم عام ١٨٩٧ في المؤتمر الصهيوني الأول كسكرتير للمكتب الذي أداره هرتسل في فيينا، تبنى هرتسل الاسم الذي صكه بيرنباوم اسمًا للحركة. (المترجمان)

(68) أفكار تبناها الحاخام يهودا القلعي والحاخام تسفي هيرش كاليشر وغيرهما، الأول ولد وعاش في بلاد البلقان، ويعده بعض النقاد رائدًا من رواد الصهيونية السياسية، أما الثاني فمن أصول بولندية، وقد رأى الاستيطان اليهودي الشامل في كل أنحاء (أرض إسرائيل) فلسطين سيمثل بداية الخلاص ليهود العالم. (المترجمان)

(69) البارون إدموند جيمس دي روتشيلد. من أكبر الممولين للمشروع الاستيطاني الصهيوني على أرض فلسطين خلال الهجرات الصهيونية الأولى إلى فلسطين. يعرف باسم: «أبو الاستيطان». (المترجمان)

(70) شاعر، وفيلسوف، وناقد أدبي يهودي ألماني. تحول إلى النصرانية، وتسمَّى باسم: كريستيان يوهان هاينريخ هاينه. يُعد من كبار أدباء ألمانيا في القرن التاسع عشر. (المترجمان)

(71) مستشرق، وعالم لغوي يهودي ألماني، ثم إسرائيلي لاحقًا. أستاذ علم اللغة بجامعة فرانكفورت، ثم بالجامعة العبرية بالقدس. مؤسس قسم الاستشراق بالمكتبة الملكية ببرلين، ومدير المكتبة القومية والجامعية بالقدس. (المترجمان)

(72) الثري اليهودي والمصرفي الفرنسي المشهور. (المترجمان)

(73) أدولف كرميا. سياسي يهودي فرنسي، شغل منصب وزير العدل في فرنسا. (المترجمان)

(74) كارل ماركس. مؤرخ وفيلسوف واقتصادي وثوري يهودي ألماني. من أهم مؤلفاته: المانيفست الشيوعي، ونقد الاقتصاد السياسي. (المترجمان)

(75) القائد الذي عينه موسى خليفة له بعد خروج بني إسرائيل من مصر. غزا أرض كنعان/ فلسطين بالقوة بعد وفاة موسى، وأباد الكثير من السكان المحليين، بحسب السفر الذي يسمى على اسمه في التوراة: **سفر يشوع**. (المترجمان)

(76) ثمة نظريات عديدة في مسألة نشأة التوحيد، من بينها أنه اختراع مصري فرعوني في عصر الملك أخناتون. (المترجمان)

(77) أديب وكاتب فرنسي (١٨٨٢-١٩٤٤)، وأحد أهم الكُتاب المسرحيين الفرنسيين خلال فترة ما بين الحربين العالميتين. (المترجمان)

(78) أديب وروائي فرنسي (١٨١٦-١٨٨٢)، اشتهر بتطويره نظرية العرق السيد الآري. (المترجمان)

(79) فيلسوف وكاتب فرنسي (١٨٢٣-١٨٩٢)، درس اللاهوت ثم انخرط في فكر ثورة ١٨٤٨ الفرنسية، التي رأى فيها رسالة سماوية وبداية دين بشري جديد، خاض نقاشًا حادًا مع المفكرين الألمان حول الانتماء والعرق، من أشهر كتبه كتاب **حياة يسوع**. (المترجمان)

(80) الغال (Gauls) أحد الشعوب الأوروبية القديمة، ظهروا في نهاية عصر البرونز وبداية عصر الحديد في الأجزاء الجنوبية الغربية من ألمانيا، ثمّ انتشروا بعد ذلك وتوزعت مناطق سكناهم بين الجزر البريطانية غربًا وآسيا الصغرى (تركيا) شرقًا، ولكن تبقى أشهرها وأعظمها بلاد الغال (أي فرنسا). (المترجمان)

(81) يريد المؤلف الجماعات اليهودية التي عاشت في أوروبا، سيما في شرقها، وتحدثت رطانة هي خليط من العبرية واللغات السلافية تسمى: الييديشية. (المترجمان)

(82) طبقة العمال الكادحين المستغلة التي تكونت مع بداية العصر الرأسمالي في إنجلترا أولًا ثم في أوروبا، وهي تعمل دون أن تملك شيئًا. (المترجمان)

(83) يقصد الكاتب الأحداث العنيفة التي وقعت بين المواطنين الروس واليهود في جنوب غرب الامبراطورية الروسية، خاصة في كيشنيف، ومناطق أوكرانيا الحالية، على خلفية اتهام الروس لليهود بالضلوع في اغتيال القيصر الروسي ألكسندر الثاني. تجدر الإشارة إلى أن هذه الأحداث أسهمت بشكل كبير في تقوية الشعور لدى الجماعات اليهودية بضرورة العيش في وطن مستقل. (المترجمان)

(84) استعمل الكاتب مصطلحًا من المجال الديني - التاريخي لا يستعمل إلا مع ما يُسمى بـ «خروج» بني إسرائيل من مصر على يد موسى، وكأنه يوازن بين حال اليهود في روسيا القيصرية وحال بني إسرائيل في مصر الفرعونية. (المترجمان)

(85) كاتب وروائي فرنسي (١٨٤٠-١٩٠٢)، وشخصية مهمة في المجالات السياسية وبخاصة في تحرير فرنسا، انبرى للدفاع عن ضابط الجيش ألفريد درايفوس. (المترجمان)

(86) كاتب وصحفي فرنسي بدأ حياته مدافعًا عن الحركات الاشتراكية والفوضوية، انتقد اليهود واعتبر أنهم أنفسهم سبب العداء الذي يتعرضون له. ثم تغيّر موقفه تمامًا بالنسبة للمسألة اليهودية بعد قضية درايفوس، فهبّ لنصرة الضابط الفرنسي وحارب من أجل رد اعتباره، ونشر عدة كتب محاولًا إظهار براءته. (المترجمان)

(87) ينتمي إلى الحركة الرمزية، وهي حركة في الأدب والفن ظهرت في فرنسا في أواخر

القرن التاسع عشر، كرد فعل للمدرستين الواقعية والانطباعية، وهدفت إلى التعبير عن سر الوجود عبر الرمز. (المترجمان)

(88) الأناركية أو السلطوية هو مصطلح يشير إلى التحرر من السلطات، ويشير المصطلح إلى عدم وجود سلطة حاكمة، أو حالة من الفوضى بسبب غياب أوعدم فعالية السلطة العليا، أو عدم وجود أو عدم الاعتراف بالسلطة والنظام في أي مجال، أو عدم وجود شخص حاكم أو مجموعة حاكمة. (المترجمان)

(89) الهون (Huns) هم مجموعة من الرعاة الرحل، الذين قدموا من آسيا الوسطى، وهاجروا إلى أوروبا حوالي ٣٧٠ ميلادية، وقاموا ببناء إمبراطورية ضخمة في أوروبا، اشتهروا منذ بداية تاريخهم بميلهم إلى الفوضى والقتال الدموي. (المترجمان)

(90) آل روتشيلد، عائلة فرنسية يهودية من كبار أثرياء أوروبا، وأصحاب أكبر المصارف بها. الأسرة من أصول ألمانية في الأصل، لكن مؤسسها، ولّى أبناءه الخمسة مسؤولية إدارة منظومة بنكية في المراكز المالية الخمسة الكبرى في أوروبا: بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، النمسا، وإيطاليا. كان للابن، البارون، إدموند روتشيلد فضلٌ كبير في إقامة المستعمرات الصهيونية الأولى على أرض فلسطين. (المترجمان)

(91) شارل فورييه (١٧٧٢- ١٨٣٧) رجل اقتصاد وفيلسوف فرنسي، صاحب نظرية اجتماعية واقتصادية عُرفت باسمه، وأيّد عودة اليهود إلى فلسطين بمساعدة عائلة روتشيلد. (المترجمان)

(92) ريخارد فاجنر أو ريتشارد فاجنر (١٨١٣- ١٨٨٣) مؤلف موسيقي وكاتب مسرحي غنائي ألماني، خلف إرثًا موسيقيًا كبيرًا يضم ١٢ أوبرا ودراما موسيقية، وبعض المؤلفات الأدبية. عُرف فاجنر بكراهيته الشديدة لليهود، وبارتباط موسيقاه وأسرته بالنازية، ومن هنا تأتي مقاطعة الفرق الموسيقية الكبرى والرسمية في إسرائيل وهيئة البث الإسرائيلية لأعماله الموسيقية. (المترجمان)

(93) طائفة آمن مؤسسها الـ بعل شيم طوف بأن خلاص الفرد اليهودي ينبع من ذاته، وليس من خلال الهجرة إلى ما يُسمَّى بـ «ارض إسرائيل». (المترجمان)

(94) تيار في النصرانية ظهر في بريطانيا في القرنين السادس والسابع عشر، بهدف تطهير الكنيسة الأنجليكانية من بقايا الكاثوليكية التي علقت بها. نادى بانتهاج أسلوب حياة متقشف وبسيط، وبالتشدد في تطبيق الفروض الدينية. تأسس التيار على تصور مفاده أن الكتاب المقدس هو الأساس الحصري للنصرانية وأن من الممكن تفسير التوراة تفسيرًا شخصيًا. (المترجمان)

(95) يرى أتباع تيار في المذهب البروتستانتي، في إقامة دولة إسرائيل، مرحلة حتمية على طريق معركة هرمجدون أو معركة يوم القيامة، التي سيباد فيها معظم اليهود ويقبل بعضهم

يسوع مسيحًا مخلصًا حقيقيًا، بحسب رؤية جون نيلسون دربي الذي تنبأ بإقامة الدولة اليهودية. (المترجمان)

(96) حزب يهودي اشتراكي ديمقراطي كان يعمل في روسيا وبولندا وغيرهما، ناهضت الرابطة الحركة الصهيونية، ودعت إلى منح اليهود حكمًا ذاتيًا في الشؤون الثقافية. (المترجمان)

(97) الزعم بأن يهود الدول العربية هاجروا إلى إسرائيل بسبب أفعال عدائية تعرضوا لها، زعم باطل؛ وحقيقة الأمر أن الدولة اليهودية كانت في أمس الحاجة في ذلك الوقت إلى أيد عاملة رخيصة، بحسب تصريح شهير لـ بن جوريون، الذي سعى، عبر النشاط الصهيوني بين يهود الدول العربية، وعبر مساعدة الدول الاستعمارية التي ضغطت على بعض الحكومات العربية، إلى سد هذا العجز عبر تهجير يهود الدول العربية. (المترجمان)

(98) الميكافيلية تعني توظيف المكر والازدواجية في الكفاءة السياسية أو في «السلوك العام»، وهو أيضًا مصطلح يعبر عن مذهب فكري سياسي أو فلسفي يمكن تلخيصه في عبارة «الغاية تبرر الوسيلة»، وينسب إلى الدبلوماسي والكاتب نيكولو مكيافيلي الذي عاش في عصر النهضة الإيطالية. (المترجمان)

(99) حدث ذلك في عصر ستالين، ويتفق كثير من المؤرخين على أن هذا التأميم القسري للأراضي الزراعية أدى إلى تفشي الجوع وموت الملايين، خاصة في حوض نهر الفولجا السفلي بأوكرانيا بين عامي ١٩٣٢ و١٩٣٣. (المترجمان)

(100) معسكرات للسخرة في الاتحاد السوفييتي السابق، خصصت للمجرمين وللمعارضين السياسيين أيضًا. (المترجمان)

(101) الجناح شبه العسكري للحزب النازي. (المترجمان)

(102) الثورة البلشفية في روسيا عام ١٩١٧. (المترجمان)

(103) البلشفية أو البلاشفة أو البلشفيك تعني الكثرة، وقد أطلقت جماعة الجناح اليساري من أنصار لينين في حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي هذا التعبير على نفسها عام ١٩٠٣. وكانوا يشكلون الأكثرية في الحزب، بينما سمي البقية بالمونشفيك، وكانت الأكثرية تسعى للحل الثوري بينما الأقلية تسعى للتغيير السلمي. وتعد الثورة البلشفية أول ثورة شيوعية في القرن العشرين، وأسفرت عن قيام الاتحاد السوفييتي. (المترجمان)

(104) الاسم الشائع للحكومة الفرنسية التي تعاونت مع دول المحور بين يوليو/تموز ١٩٤٠ وأغسطس/آب ١٩٤٤. اتخذت الحكومة من مدينة فيشي مقرًا لها، وخلفت الجمهورية الفرنسية الثالثة، وحكمت فرنسا في ظل الاحتلال الألماني النازي والإيطالي الفاشي إلى أن تأسست الحكومة المؤقتة للجمهورية الفرنسية برئاسة شارل ديجول في أغسطس/آب ١٩٤٤.

(المترجمان)

(105) قطعة قماش صفراء بحجم كف اليد، أجبر اليهود على ارتدائها في ألمانيا في ظل الحكم النازي، الذي أقر سلسلة من الأنظمة والقوانين، منها أن من لا يرتدي الرقعة يُعرِّض نفسه للعقاب. مرسوم على القماشة نجمة داوود ومكتوب عليها: (jude) أي: يهودي حقير، وأصبحت دلالة هذه الرقعة فيما بعد رمزًا مسيئًا لليهود. (المترجمان)

(106) لويس فرديناند سيلين (١٨٩٤-١٩٦١)، يعد واحدًا من أكثر الكتاب إبداعًا وتأثيرًا في القرن العشرين، وقد اكتسبت أعماله الروائية شهرة أدبية عالمية، وخاصة في فترة الثلاثينيات من القرن العشرين، غرف بمعاداته لليهود ووقوفه مع النازيين ودعواته إلى تطهير فرنسا من اليهود. (المترجمان)

(107) الحركة اليمينية الفرنسية المتطرفة. (المترجمان)

(108) ثمة مغالطة في هذا الكلام، الذي يستبعد السعي الصهيوني الحثيث من أجل تهجير وتوطين يهود أوروبا في فلسطين، حتى قبل الحربين العالميتين بفترة كبيرة، منذ ظهور التنظيمات الصهيونية الأولى في روسيا القيصرية عام ١٨٨٢م ومنها: «احباء صهيون» وغيرها. والأرجح، في نظري، أن سياسة الحركة الصهيونية فيما يتعلق بهجرة يهود أوروبا إلى فلسطين لاقت استحسانًا لدى الأوروبيين، الذين رغبوا، من ناحية في التخلص نهائيًا من اليهود، وفي إقامة كيان مُوالٍ لهم في الشرق بعد نهاية الحقبة الاستعمارية، من ناحية أخرى. (المترجمان)

(109) فيلسوف ألماني، اهتم بالمشكلات الميتافيزيقية والوجودية، كان له تأثير كبير على المدارس الفلسفية في القرن العشرين، له عدة مؤلفات منها **الوجود والزمان**، **ونيتشه**، **والمفاهيم الأساسية في الميتافيزيقيا**، كان عضوًا في الحزب النازي الألماني في مطلع ثلاثينيات القرن الماضي بالتزامن مع توليه منصب رئيس جامعة فرايبورج، واستخدمت فلسفته في إضفاء الشرعية على الشعبوية والعنصرية الثقافية لليمين المتطرف، وقد اتسمت آراؤه بمعاداة اليهود. (المترجمان)

(110) فيلسوف يهودي ألماني، أحد مؤسسي الصهيونية العمالية. (المترجمان)

(111) ناهيك عن أن مصطلح يهود لم يظهر إلاّ لاحقًا بعد حقبة وجود بني إسرائيل أو العبرانيين في مصر الفرعونية، فإن السمات الشكلية للرسومات الفرعونية، ذاتها، تبدو لكل من طالعها مصرية فرعونية أصيلة؛ بل إن بعض الآثاريين المدققين يتعجبون من عدم وجود أي إشارة للعبرانيين - البدو الرحل في بعض دلالات لفظة «عبري» - في الكتابات المصرية القديمة، باستثناء نص وحيد عن إشارة إلى قبائل «الخابيرو» في وثائق جزيرة «إلفنتاين» بأسوان. من ناحية ثانية، اعتنقت أعراق عديدة، بحسب المؤلف نفسه، الدين اليهودي، كما في حالة شعب الخزر بوسط آسيا، واختلطت بسلالة العبرانيين أو بني إسرائيل، الذين سُمُّوا لاحقًا يهودًا. والحقيقة التي لا يختلف عليها اثنان، أن اليهودي من أصل مصري يشبه المصريين في ملامحهم،

واليهودي من أصل يمني يشبه اليمنيين، واليهودي من أصل ألماني يشبه الألمان وهكذا دواليك. (المترجمان)

(112) ناشط صهيوني بولندي، ومؤسس حركة محبي صهيون. (المترجمان)

(113) ناشط صهيوني نمساوي، أدّى دورًا مهمًا في المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧، أول من اشتق لفظة «الصهيونية» (Zionism) بمدلولها السياسي الحديث، في مقالته الصادرة باللغة الألمانية «التحرر الذاتي» (Selbstmanzipation) التي نشرها في العام ١٨٩٠. وقد تطوّر موقفه هذا بالتدريج إلى أن أصبح من رافضي الصهيونية وأصبح من دعاة القومية اليديشية كحل للمسألة اليهودية، فشدد على أهمية الحفاظ على الهوية اليهودية من خلال المحافظة على لغة البيديش التي يتحدث بها اليهود في ألمانيا بدلًا من العبرية. (المترجمان)

(114) تأسست جماعة «محبة صهيون» في روسيا عام ١٨٨٢، وهي من الإرهاصات الأولى للصهيونية ومن التنظيمات الرائدة في مجال الاستيطان. كان هدفها محاربة اندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها والدعوة إلى هجرتهم إلى فلسطين، وقد دعمت هذه الجماعة الهجرة إلى فلسطين وشراء الأراضي فيها، ومساعدة الاستيطان اليهودي هناك. (المترجمان)

(115) هيوستن ستيوارت تشامبرلين (١٨٥٥ - ١٩٢٧) فيلسوف بريطاني ألماني، كتب أعمالًا عن الفلسفة السياسية والعلوم الطبيعية. ادعى بأن جميع الحروب التي حدثت على مر التاريخ كانت مرتبطة بالعمليات المالية اليهودية، وأن اليهود وضعوا خططًا لتدمير الحضارة الآرية، وأن اليهود هم فيروس غريب يجب تطهير الدم القومي منه. (المترجمان)

(116) استعمل النص العبري مصطلحا من الحقل الديني اليهودي من بين مدلولاته: «شعب ابن سفاح»، و«شعب شاذ». (المترجمان)

(117) يسرائيل زانجويل (١٨٦٤-١٩٢٦) كاتب إنجليزي، وُلد في لندن لعائلة من المهاجرين اليهود من شرق أوروبا، صاحب عبارة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، التي ارتبطت به منذ عام ١٨٩٧، كان واحدًا من أبرز مساعدي هرتسل، وقد زار فلسطين عام ١٨٩٧، ووقف وجهًا لوجه أمام الحقائق الديموغرافية فيها، فنادى بترحيل الفلسطينيين منها، واقترح فكرة التقدم إلى الحكومة البريطانية بطلب لمنح اليهود منطقة أخرى للاستيطان غير فلسطين، لكن موقفه من العرب ومن الفلسطينيين بقي ثابتًا. (المترجمان)

(118) زعيم صهيوني مجري، وفيزيائي وكاتب، شارك في تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية. (المترجمان)

(119) زئيف ڤلاديمير جابوتنسكي (١٨٨٠-١٩٤٠)، هو صحافي يهودي أوكراني، من قادة الحركة الصهيونية، ومؤسس حزب الصهيونية التصحيحية، التي نادت بفكرة «إسرائيل الكبرى» لتضم فلسطين التاريخية وشرق نهر الأردن، على عكس المسار الرسمي للحركة الصهيونية

التي قبلت بإقامة دولة لليهود على جزء من «أرض إسرائيل». كان جابوتنسكي من الداعين والمشجعين لتنفيذ عمليات هجرة غير شرعية لليهود إلى فلسطين ابتداء من العام ١٩٣٢، ويعد جابوتنسكي الأب الروحي للتيار الصهيوني المتطرف والمسؤول عن كثير من المجازر التي تم ارتكابها بحق الفلسطينيين. (المترجمان)

(120) نسبة إلى حركة فولكيش الألمانية العرقية في أواخر القرن التاسع عشر. (المترجمان)

(121) يوهان فخته: فيلسوف ألماني، أحد مؤسسي الحركة الفلسفية المعروفة باسم المثالية الألمانية. (المترجمان)

(122) بريت شالوم أو تحالف السلام، جماعة من المثقفين اليهود تشكلت في القدس من أجل إحداث تقارب بين العرب واليهود، بدأت عملها عام ١٩٢٥ وانتهى نشاطها مع بداية الثلاثينيات من الفترة ذاتها. (المترجمان)

(123) آرثر روبين (١٨٧٦-١٩٤٣) عالم اقتصاد واجتماع، وقائد صهيوني والعقل المدبر لإقامة المستوطنات في عدة مواقع من فلسطين، وقد كرس جهوده لتطوير المستوطنات اليهودية، ولزيادة الهجرة إلى فلسطين وحركة الاستيلاء على الأراضي الفلسطينية بكل الطرق. وقد ضع روبين عددًا من المؤلفات التي تعالج الأحوال الاجتماعية لليهود. (المترجمان)

(124) مستعمرة تعاونية زراعية للمهاجرين الصهاينة إبان المراحل الأولى من الهجرات الصهيونية إلى فلسطين. وهي نموذج مستوحى من أشكال التعاونيات الاشتراكية الروسية، التي يعمل فيها الفرد مقابل طعامه وشرابه وإقامته واحتياجاته، لكنه لا يتملك شيئًا. (المترجمان)

(125) حنة آرندت (١٩٠٦ -١٧٨٥) مُنظّرة سياسية وباحثة يهودية ألمانية، قدمت مقاربات نقدية في النظرية السياسية من خلال تحليل الفكر السياسي في العصر الحديث، وربطِه بمختلف التأثيرات الوجودية التي تبحث عن مساحة للعدالة والعمل الأخلاقي، تعاونت في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي مع بعض المنظمات الصهيونية، لكنها كانت من الأصوات المعارضة لإقامة دولة يهودية في فلسطين، بالإضافة إلى خلافها السياسي مع الحركة الصهيونية في كيفية التعامل مع «المسألة العربية» في فلسطين. (المترجمان)

(126) غابات جبلية كثيفة الأشجار في جنوب غرب ألمانيا، تقع في ولاية بادن فورتمبيرج، مسقط رأس مارتن هيدجر. (المترجمان)

(127) من اللغة اليونانية بمعنى شعب أو عرق. (المترجمان)

(128) يتسحاق بن تسيفي (١٨٨٤- ١٩٦٣) مؤرخ وزعيم عمالي صهيوني، وهو ثاني رؤساء إسرائيل وصاحب أطول فترة رئاسة يقضيها رئيس إسرائيل، انتخب رئيسا لإسرائيل في

ديسمبر/كانون الأول ١٩٥٢، وكان بن تسفي باحثا معروفا في التاريخ اليهودي والإثنولوجيا، وتاريخ أرض إسرائيل. (المترجمان)

(129) تيتوس (٣٩ – ٨١م) هو قائد روماني، حاصر القدس بقيادة جيش من الروم، وانتهى الحصار بإحراق وتدمير الهيكل الثاني سنة ٧٠م، ويقيم اليهود في إسرائيل ذكرى خراب الهيكل في التاسع من أغسطس/آب كل عام. (المترجمان)

(130) تمرّد قام به يهود ولاية يهودا الرومانية، بقيادة شمعون بار كوخفا، ضد الإمبراطورية الرومانية بين عامي ١٣٢-١٣٦م، نتيجة للتوترات الدينية والسياسية في يهودا، تسبب تمرد بار كوخفا في إخلاء سكان واسع المدى في مناطق يهودا، فاق ما حدث خلال الحرب اليهودية الرومانية الأولى في عام ٧٠ م، ولقي نحو ٥٨٠ ألف يهودي حتفهم في الحرب ومات كثيرون غيرهم من الجوع والأمراض. (المترجمان)

(131) جملة يستهل بها اليهودي صلاة النافلة في الأيام اليهودية المقدسة، كيوم السبت وعيد رأس السنة اليهودية وعيد الغفران. وهي الجملة ذاتها التي تستعمل في الخطاب العام للتعبير عن مفهوم اصطفاء بني إسرائيل من بين كل الشعوب. (المترجمان)

(132) جامعة يهودية خاصة تأسست عام ١٨٨٦م. يتضمن المنهج الدراسي للدرجة الجامعية الأولى بها مواد دراسية تجمع بين التراث الديني اليهودي (الأرثوذكسي) والحداثة الأمريكية، بين: «التوراة والعلم». (المترجمان)

(133) هو الحاخام إلياهو بن شلومو زلمان (١٧٢٠-١٧٩٧)، ولد في فيلنيوس (فيلنا) في ليتوانيا في روسيا، يعد من أهم علماء عصره، ومن أكثر الحاخامات تأثيرًا في العصور الوسطى، ألّف العديد من الكتب المهمة، وله الكثير من الحواشي والتعليقات على التلمود، وترجم الكثير من الكتب إلى اللغتين العبرية واليديشية. (المترجمان)

(134) هم مجموعة عرقية، تعيش في ويلز، وويلز بلد في المملكة المتحدة، وغالبية الأشخاص الذين يعيشون في ويلز هم مواطنون بريطانيون. (المترجمان)

(135) النشيد الوطني الفرنسي. (المترجمان)

(136) النشيد الوطني الأمريكي. (المترجمان)

(137) النشيد الوطني الإسرائيلي. (المترجمان)

(138) مشروع يمثل جسرًا بين إسرائيل ومئات الآلاف من الطلاب اليهود من جميع أنحاء العالم. يهدف إلى تعزيز الهوية اليهودية لدى الطلاب اليهود خارج إسرائيل، وإلى خلق رابطة بينهم وبين دولة إسرائيل. يزور الطلاب اليهود، في إطار المشروع، دولة إسرائيل ويمكثون بها

عشرة أيام يتعرفون فيها على معظم جوانب الحياة بها بصحبة مرشدين من الجنود أو أقرانهم من الطلاب. (المترجمان)

(139) مؤسسة إسرائيلية رسمية أقيمت في ١٩٥٣ كمركز أبحاث في أحداث الهولوكوست، تضم المتاحف والمعارض والأنصبة التذكارية والمراكز البحثية والتعليمية والأراشيف والمكتبات. (المترجمان)

(140) قلعة متسادا: هي قلعة تقع على مرتفع صخري بارز في شرق صحراء النقب الفلسطينية بالقرب من البحر الميت. وتُعرف أيضًا بـ«مسعدة»، وهي إحدى الأساطير اليهودية التي تروِّج للبطولة والشجاعة لدى اليهود بزعم الاستناد إلى بحوث تاريخية واكتشافات أثرية والتنقيب في التراث اليهودي، وقد تناولتِ العديدُ من الدراسات (بما فيها دراسات إسرائيلية) أن هذه الروايات ما هي إلا محضُ خرافة وأنه لا يمكن التدليل على سلامة الاكتشافات الأثرية. وقد تلقَّفت الحركة الصهيونية أسطورة «متسادا» ودفعت بها إلى أقصى حدود التقديس والمثالية والفداء والتضحية، والصبر على الشدائد حتى الموت، والإخلاص «لقومية الشعب اليهودي»، وجعلت منها مزارًا لصوغ هوية الصبية اليهود. ومنذ عام ٢٠٠١ أعلنت هيئة اليونيسكو القلعة موقعًا أثريًا ينتمي إلى التراث العالمي. انظر حاشية رقم (١)، ص٨٤. (المترجمان)

(141) بيان حول «علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية». (المترجمان)

(142) عاصمة الإقليم اليهودي المستقل استقلالًا ذاتيًا بأقصى شرق روسيا. تأسست عام ١٩١٥. تقع المدينة على نهر بيرا، وتبعد ٧٥كم عن الحدود الصينية بجوار خط السكك الحديدية العابر لسيبيريا. (المترجمان)

(143) رئيس نظام فيشي في فرنسا خلال الحرب العالمية الثانية. انظر حاشية رقم (١)، ص١١٨. (المترجمان)

(144) محامٍ فرنسي (١٧٥٨- ١٧٩٤) كان أحد أشهر وأكثر الشخصيات تأثيرًا في الثورة الفرنسية، انتخب رئيسًا لنادي اليعاقبة، وازدادت شعبيته كعدو للملكية ونصير للإصلاحات الديمقراطية، أصبح له تأثير كبير على الحكومة الفرنسية، وبدأ في القضاء على كل من اعتبرهم «أعداء الثورة» فأعدم معظم زعماء الثورة الفرنسية، وهو ما عُرف بعهد الإرهاب. (المترجمان)

(145) جنريخ /هينريخ يهودا (١٨٩١-١٩٣٨) سياسي وثوري روسي شيوعي من أصل يهودي، كان عضوًا بارزًا في الاستخبارات السوفياتية منذ عام ١٩٢٠ حتى وفاته وعُرف بتاريخه الدموي وإعدامه وسَجنه للكثير من المعارضين السياسيين لجوزيف ستالين وإشرافه المباشر على المعتقلات السوفياتية. (المترجمان)

(146) الهيئة المسؤولة عن الأمن الداخلي في الاتحاد السوفييتي السابق وعن ملاحقة المعارضين. (المترجمان)

(147) انظر حاشية رقم (٢)، ص ٥١١. (المترجمان)

(148) لم يكن مسموحًا لليهود وقتذاك العيش خارج هذا النطاق، لكن التحريم انتهى مع انتهاء حكم القياصرة. (المترجمان)

(149) عاصمة جمهورية مولدوفا وأكبر مُدنها، وتُسمّى كيشينيف أيضًا. (المترجمان)

(150) جماعة متطرفة ظهرت بعد الحرب الأهلية في الولايات المتحدة الأمريكية، تؤمن الجماعة بتفوق العرق البروتستانتي الأبيض على غيره من الأعراق والديانات، وتعارض تحرير السود وحصولهم على الحقوق المدنية كما تطالب بالقضاء على الأقليات الدينية والعرقية في الولايات المتحدة. (المترجمان)

(151) دانيال كوهين بانديت (١٩٥٤-...) كاتب وسياسي صحفي ألماني، وعضو في البرلمان الأوروبي، شارك في أحداث مايو/أيار ١٩٦٨ في فرنسا، التي بدأت بسلسلة من إضرابات طلابية ضد الرأسمالية والنزعة الاستهلاكية والإمبريالية الأمريكية والمؤسسات التقليدية، والتي استمرت نحو سبعة أسابيع وتخللتها المظاهرات والإضرابات العامة واعتصامات الجامعات والمصانع، التي تعاملت معها الشرطة بالقوة. (المترجمان)

(152) يتنافى هذا الكلام مع الممارسات الوحشية للاحتلال ضد الفلسطينيين، ومع الاحتلال في حد ذاته، بحسب الأعراف والقوانين الدولية؛ كما يتنافى مع التمييز والتهميش الذي يتعرض له الفلسطينيون داخل إسرائيل في كثير من المجالات، بل مع التمييز والتهميش الذي تتعرض له بعض الطوائف اليهودية مثل الشرقيين ويهود الفلاشا. (المترجمان)

(153) الحاخام مناحيم منديل شنيئرسون (١٩٠٢-١٩٩٤) لقب بـ ابن بلدة لوبافيتش، الزعيم الروحي لحركة «حبد» اليهودية الحريدية، يُعد واحدًا من أكثر الشخصيات الدينية اليهودية نفوذًا في القرن العشرين، عدَّه أتباعه المسيح المنتظر واعتقد الكثير منهم ذلك حتى بعد وفاته، عارض بعض مبادئ اليهودية الأرثوذكسية التي تدعو إلى الانغلاق، وشجع أتباعه على نشر قيم اليهودية والحسيدية في دوائر واسعة قدر الإمكان، وأسس الآلاف من المؤسسات التعليمية والمنظمات المجتمعية والمعابد اليهودية حول العالم. (المترجمان)

(154) ماريك إديلمان (١٩٢٢-٢٠٠٩) سياسي وناشط اجتماعي يهودي بولندي. (المترجمان)

(155) انظر حاشية رقم (٣)، ص ٩٠١. (المترجمان)

(156) حي سكني يهودي في وارسو البولندية، أسسته السلطات الألمانية عام ١٩٤٠، وكان أكبر الأحياء النازية خلال الحرب العالمية الثانية وأحداث النازي، تشير الأرقام إلى أنه قد شجن فيه ما يصل إلى ٤٦٠ ألف يهودي في منطقة تبلغ مساحتها ٣.٤ كيلومتر مربع، وفي صيف عام